قلت لحماري

تأليف

الدكتور محمد سعيد التركي

قلت لحماري

تأليف

الدكتور محمد سعيد التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

" مقدمة الكتاب "

تعريف :

كتاب قلت لحماري ، كتاب فكري أدبي يستخدم الجدال في طرح الأفكار ، و هو يعالج الأفكار المطروحة عالمياً للمباديء المختلفة الرأسمالية و منها الديموقراطية و المبدأ الإشتراكي و غيرهم من المباديء النفعية ، و كذلك الفكر الإسلامي ، و وجهة نظر الإسلام .

يصور الكتاب شخصية رجل الشارع في العالم ، و الأفكار التي يحملونها و المقاييس و القناعات التي يبنون عليها معاملاتهم و علاقاتهم بأنفسهم ، و بغيرهم من المجتمعات و الأفراد .

كما يصور الكتاب طريقة التفكير التي ينتهجها و يستخدمها العالم اليوم ، في التعامل مع أمور الحياة العامة ، و الأفكار و المباديء المطروحة في العالم ، و طريقة التفكير في إعطاء وجهات النظر في الأحداث العالمية الكوارثية ، و في كيفية إيجاد الحلول للمشكلات ، على المستوى الشخصي و الجماعي و العالمي .

كما يتحدث عن مسائل تهم بناء شخصية الفرد ، و ما يترتب على بنائها من علاقتة بالحياة التي تحيط به ، كالحديث عن الحرية و السعادة و أهميتهما ككثير من الأفكار في بناء الشخصية .

منهج الكتاب :

كان لا بد للحديث عن هذه المسائل الإنطلاق أولاً من موقف منهجي و فكر محدد و بيّن ، حيث يتوجب الحديث عنها التعرض للمسائل العقائدية و الأفكار المتعلقة بالعقائد ، و كذلك كان لا بد من أن تكون الفكرة واضحة وضوح الشمس حتى يمكن لها مقارنتها مقارنة بيّنة بالأفكار الأخرى ، و العقائد المختلفة التي تقابلها .

و كون أن الكتاب ينطلق من منطلق الحقيقة ، أن العالم أجمع في يومنا هذا يعيش أزمة فكرية و سلوكية حقيقية ، سياسية و إجتماعية و إقتصادية و أمنية ، على المستوى الإنساني و الأخلاقي و الروحي و المادي ، فقد إتخذ الكتاب منهج لفت نظر القاريء لكثير من المسائل الإجتماعية و السياسية و الإقتصادية التي تهمه ، و تهم العالم أجمع في جميع جوانب الحياة ، بأسلوب أدبي شيق أحياناً ، و قاسي أحياناً و باعثاً للتفكر و التدبر أحياناً أخرى .

هذه الجوانب في الحياة قد يقف الإنسان منها في يومنا هذا موقفاً سلبياً بالرغم من معاناته و آلامه و البؤس الذي يعيشه بسببها ، و ذلك إما لعدم علمه أنه يعيش أزمة إبتداءً ، أو علمه بها و لكن جهله بأسباب حدوثها ، أو علمه بأسبابها و لكن دون العلم بالبدائل التي عليه أن يطالب بها ، أو علمه أنه يعيش و الناس و الكرة الأرضية أجمع أزمة حقيقية يعلمها و يعلم أسبابها و يعلم بدائلها ، و لكنه لا يعرف الكيفية للخلاص منها ، أو يكون من فئة المنتفعين من المصائب الحالّة على العالم ، و لكنه لا يرجو تغييرها لمناقضتها لمصلحته ، أو يكون من الفئة التي تفتقد من الأساس العزيمة للتغيير و هو يعلم كل هذه الأمور .

لذلك فقد كان لزاماً أن يوضح هذا الكتاب ماهية الأزمة التي يعيشها العالم أجمع و خاصة العالم الثالث فيه ، بغض النظر عن الأجناس أو الألوان أو الأديان ، و أن يوضح له أسباب حدوث هذه الأزمة ، و المصائب التي تترتب على السكوت عليها ، و يناقش البدائل التي يجب على العالم أن يطالب بها و يتبناها ، و كذلك يضع تصوراً للكيفية للخلاص من هذه الأزمة التي يعيشها العالم ، و التي هي في الأساس أزمة فكرية قبل أن تكون أزمة أخلاقية أو إنسانية أو إقتصادية أو سياسية أو إجتماعية ، لأن هذه المسائل مبنية على الفكر و على تبني الأفكار .

و لذلك إنتهج الكتاب الأسلوب الجدلي ، بطرح الأفكار العالمية و مناقشتها و مناقشة ما يغايرها من أفكار بدءًا من الأفكار الأساسية ، أي العقائد ، و مروراً بالأفكار الفرعية المتعلقة بها ، و إنتهاءًا بالأنظمة المنبثقة منها .

و قد إنطلق الكاتب في طرحه من وجهة نظر الإسلام كقاعدة فكرية يقارنها مع الأفكار و المباديء الأخرى في معالجته للمشكلات المترتبة على العلاقات بين الإنسان و نفسه ، و بينه و بين غيره من الأفراد ، و علاقات المجتمعات مع بعضها البعض إبتداءًا ، و الدول مع بعضها البعض إنتهاءًا .

أهمية هذا الكتاب :

إن الأوضاع المؤلمة في العالم من مجاعات و فقر و مرض لثلثي سكان العالم و خاصة لما يسمى العالم الثالث ، و هيمنة الرأسماليين على العالم ، و الحروب الظالمة و المدمرة التي يقودونها في العالم التي لا تدع مقاتلاً و لا بريئاً ، و لا تفرق بينهم ، و لا تفرق بين أرض المعركة و باقي الطبيعة في الأرض التي يعيش فيها الإنسان ، و أعمال الإحتلال و الإستعمار المباشر و غير المباشر التي تقوم بها الدول القوية للبلدان الأخرى ، و الهيمنة و التسلط على مقدرات الشعوب من داخل الدول و من

خارجها ، و الإستسلام و الخضوع و الخنوع للعدو الظالم المعتدي ، و التدهور الخُلقي و الإنساني في العلاقات البشرية ، و قبول بعض الشعوب العيش على دماء و أموال غيرهم من الشعوب ، كل هذه و غيرها كثير من الحقائق التي هي حديث اليوم و الساعة تعطي مؤشراً واضحاً للإنحطاط الفكري الذي يعيشه العالم أجمع .

فكون أن أمّة تقبل بالظلم أن تقوم به و تجاهر ، و أمة أخرى تقبل بالظلم أن يقع عليها و تشرب سمّه ، فإن هذا و ذاك لا تفرق بينهم خلقة الخالق شيئاً ، اللهم إختلاف الفكر هو الذي يفرق بينهم .

لذلك فإن للكتاب أهمية قصوى في لفت نظر العالم أجمع للفكر السائد الذي يتبنونه و تسير الأمور بحسبه ، هذا بفكره المصلحي التسلطي و الآخر بفكره الإستسلامي الضلالي ، و كذلك للفت النظر لأثر هذا الفكر في سلوك الأفراد و الشعوب و الدول .

فالكتاب يكشف للقاريء نوعية الفكر الذي يحمله ، و المقاييس و القناعات التي يعيش بها ، و يكشف له طريقة التفكير التي يستعملها لتحقيق مصالحه و بناء العلاقات مع من حوله ، و يكشف له عن الثمرة التي يحصدها من خلال تعاملاته التي تتصف به و يتصف هو بها ، و كيفية الحياة الي يدعو الناس إليها ، و يعرض له وجهة نظر جديدة قد لا يكون على علم بها أو إطلع عليها أو تصورها ، و يكشف للقاريء كذلك أن الأفكار التي يحملها الأفراد إنما هي صورة للأفكار التي تحملها دولهم تجاههم و تجاه الدول و الشعوب الأخرى .

أسلوب الكتاب الأدبي :

لذلك إتخذ الكتاب أسلوباً أدبياً شيقاً في هيئة حوار و جدال بين طرفين حيث أن المواضيع التي يتحدث عنها الكتاب مواضيع فكرية غير سهلة التناول عادة ، كما هي

لعامة القراء غير سهلة القراءة ، و يصعب الإستمتاع بها إذا لم تقدم بصورة شيقة و سهلة الطرح و الأسلوب ، و لذلك إتخذ الكتاب هذا الأسلوب في هيئة حوار و جدال بين طرفين ، الكاتب فيه هو الطرف الأول ، أما الطرف الثاني فهو نموذج حي لشخصية رجل الشارع البسيط و الرجل المثقف و طالب العلم و أصحاب الشهادات العليا ، في صورة مخلوق حيواني ، إختارها الكاتب لتكون " الحمار " لإعتبارات سيذكرها الكاتب لاحقاً في مقدمته .

عرض الكتاب كثيراً من التحاليل النفسية و العقلية لشخصية الأفراد ، إستناداً للأفكار التي يحملونها و ذكر أثرها عليهم في سلوكياتهم الإجتماعية ، و أثرها على مواقفهم من الحياة الرديئة التي يعيشونها ، إجتماعياً و إقتصادياً و دولياً .

قدم الكتاب هذا الحوار في خمسة عشر فصلاً لمواضيع مختلفة و ذلك لغرض التبسيط و التشويق للأفكار المُتناولة .

"مقدمة الكاتب"

صديقنا بطل الحوار هو "الحمار" ، و لم يكن ذئباً و لم يكن أرنباً أو فيلاً ، كون أن الإنسان بادئا ذي بدء و على مر العصور قد ألصق مفهوماً و صفةً محددة بكل حيوان رآه ، ثم أصبح هذا المفهوم شائعا و ملتصقًا بكل حيوان عرفه ، حتى و لو لم يكن هذا الحيوان أو ذاك به شيء من تلك الصفات التي تصورها الإنسان عنه .

و لذلك نجد أن الإنسان قد ألصق صفة الملوكية و الشجاعة بالأسد ، بالرغم من أن الأسد في الحقيقة لا يحمل تلك الصفات التي ألصقت به ، أو قد ألصق صفة اللؤم و و الغدر بالذئب ، و الذئب في حقيقته لا يحمل تلك الصفات .

على جميع الأحوال فإن هذه المفاهيم بكل حيوان قد أُلصقت به و كفى ، و لا جدوى لتغييرها من أذهان البشرية أجمع .

شأن ذلك شأن بطل الحوار " الحمار" في كتابنا هذا فهو الحيوان الذي قد عُرف بغبائه المفرط ، و عرف بذلته و قلة حيلته و هوانه ، بالرغم مما يحمل من قوة عضلية ، و من قوة تحمل للمشاق .

بلا شك إن الحمار كغيره من البهائم لا يعقل ، و البهائم كلهم لا يعقلون ، مثلهم كمثل الحمار سواء بسواء ، و لكن كون الحمار قد أصبح نموذجا للبهيمية الصرفة ، فقد إستخدمته بطلا في حواري ، فالناس كلهم يعرفونه ، و لا يعرفونه إلا بتلك الصفات .

كذلك كون الحمار رفيقا دائما لمن يستخدمه للتنقل ، فإني أنطقته مجازا ، فذلك ممتع للقارئ بشكل أو بآخر ، و هو شئ خارج عن المألوف .

و حيث أن الحمار قد أُعتبر من جميع الناس مثالا جيدا للبهيمة من بين البهائم ، و حيث أننا نريد نحن هنا أن نُنهضه من دركه إلى درك العاقلين بدلا من أن نُنهضه إلى درك الكلاب مثلا فهذا أمر معجز و خيالي ، و لكن ماذا لو قام الإنسان فعلاً بخوض هذه التجربة عناداً و عزيمة ماذا سيحصل يا ترى ، و ماهي المواقف التي سيواجهها الإنسان مع هذا الصنف ، و كيف تراه سيتفاعل مع هذا الإنسان الذي حمل على عاتقه فعل المعجزات ؟ .

لقد صور الناس حقيقة إنهاض الغير عاقلين أو الجاهلين إلى أُناس يعقلون ، كهذه الصورة التي صورتها ، من المعجزات بل من الخوارق ، و لكن أصحاب الهمم العالية و العزائم الصلدة و أصحاب السعي المتواصل لا يعرفون بل و لا يدركون ، أو نستطيع القول إنهم لا يعترفون بالمصاعب و لا يعرفون المعجزات .

و قد شبه الناس المريد العازم على إنهاض الجاهلين أو المتأخرين من الأمم و تحويلهم أو بالأصح تغيير واقعهم ، كالذي يريد أن يُنطق الحمار و يحوله من بهيمة إلى رجل عاقل .

إذن فلندخل هذه التجربة على مرأى و مسمع من القارئ و لنرى ما ستؤول إليه هذه الدعوة لعالم الحمير لتغييرهم من حمير إلى عقلاء ، و لنرَ ما مدى إستجابتهم لهذه الدعوة ، و ماهي أبعاد النجاح فيها ، و هل سيكون هذا ممكن في الحقيقة ، أم هو ضرب في الخيال ، و ترف في الدعوة ؟

أرجو أن يدعو القارئ لي و له بالتوفيق من الله ، و أن يشملنا برحمته إنه سميع مجيب الدعاء .

الكاتب

قلت لحماري

" محتويات الكتاب "

الصفحة

- المقدمة
- صديقي الحمار..... ١٣
- حماري و العيد السعيد..... ٤٧
- حماري و القراءة ٦٧
- حياة الحمير الكريمة ٧٨
- حماري و مبدأ الإسلام ٩٤
- حواري مع حماري ١٠٣
- الحمير و التكنولوجيا ١١٧
- حماري و خلط الدين بالسياسة ١٢٨
- حماري و الحرية ١٤٥
- حماري و حرية العقيدة ١٦٩
- أنا و الحمير و الأثرياء ١٧٨
- حماري و السياسة و الإقتصاد ١٩٣
- حماري و تعدد الزوجات ٢٠٧
- حماري و الأقمار الصناعية ٢١٨
- النهاية السعيدة ٢٢٩

قال الله تعالى

" كمثل الحمار يحمل أسفارا "

و قال تعالى

" إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا "

الفصل الأول

صديقي الحمار

بسم الله الرحمن الرحيم

خرجت كعادتي في صباح يوم باكر إلى عملي ، و ركبت حماري قائلا له :

السلام عليكم

رد علي قائلا :

صباح الخير يا سيدي ،

هل قرأت كتاب توفيق الحكيم الذي عنوانه " قال حماري " ،، ؟

قلت :

لا ،، لم أقرأه .. و ما عسى به أن يكون حتى أقرأه ؟

أضفت سؤالاً آخراً ، قائلاً :

و هل عسى تكون قد قرأته أنت ؟

قال :

كأنك يا سيدي تستنكر سؤالي ، فالأجدر بك أن تكون قد قرأته أنت ، أو إطلعت عليه ، كون الكتاب عملاً أدبياً ، و أنت تدعي الأدب ، و أما أنا فليس لي أن أقرأه .

قلت لحماري :

و لماذا ؟

قال :

لأني أنا حمار ، ولا أقرأ ، و يشغلني كثيراً كما تعرف النوم الهانيء في الليل ، و الأكل في النهار ، وبعض الأعمال وقت الأسفار ، و لا أجد ضرورة للقراءة .

قلت لحماري :

ولمَ إهتمامك بكتاب كهذا إذن ؟

قال :

لأنه يوحي من عنوانه أن به شيئاً من الإحترام و التقدير لجنس الحمير .

قلت لحماري :

و هل عندكم معشر الحمير شيء من الإحساس و الرغبة في الإحترام و التقدير ؟ فذلك لا يبدو على تصرفاتكم .

قال :

بل عندنا ، و لكنا بحاجة لمن يفهمنا ،،

سكتُ ، و سكت الحمار و أنا أحدث نفسي :

**

كم من الأحايين الكثيرة أدرك أن الحمير لا تُدرك ، بل لا تريد أن تدرك ، و لكن بعضهم كحماري هذا ينبؤني ببعض الذكاء ، مما يثير عندي نزعة تحدٍ قوية لأن أستغل ما عنده من الذكاء ، و أعلّمه و أبنيه بناءً فكرياً ، فأنقله من عالم الحمير إلى عالم العاقلين ، فأكون قد أشبعت نزعة التحدي الجامحة التي أملكها ، و أشبع نزعة الرغبة في نقل العلم إلى غيري ، فأكون قد نجحت أيضاً بما عجز عنه الملايين غيري ممن يدعون الأدب و الفكر ، بالقيام بثورة كهذه ، بنقل الحمير من حمير إلى

عقلاء ، و كذا إلى أدباء و مفكرين ، بل و على الأقل من ذلك أنقلهم من إلى عاملين لخدمة الثقافة و الفكر ، بل و على الأقل من ذلك كله لأن لا يقفوا حجارة عثرة صداً لما ينتجه الفكر و العلم من أعمال ، ترقى بالناس من الإنحراف و الإنحطاط إلى القوامة و الرقي .

أخذت أحادث نفسي بهذا طويلاً ، و أنا تشدني لهفتي لهذه المغامرة ، التي تتطلب صبراً و عنداً و كيداً عظيماً .

و بقيت على ذلك بين أخذٍ و ردٍّ ، و إقدام و إحجام ، حتى إستقرت سريرتي على رأي بين هذا و ذاك ، بأن أدع ذلك للأيام و حسب ، و كما تمليه علينا الظروف أنا و حماري .

إستأنفت حديثي مع حماري يوماً فيما قد تحدثت به معه من قبل ،،

فقلت لحماري :

لقد فكرت فيما تحدثنا به يومذاك ، في أمر ما تحملونه معشر الحمير من أحاسيس ، و أن لديكم مشاعر ، و لكني لا زلت أجد ما يدل على عدم تفاعلكم لما يثير أحاسيسكم من فرح و غضب و غيرة و حمية و تنافس ، و لا أجد عندكم أموراً أخرى كالشجاعة و البطولة و إغاثة الملهوف و الكرم ، و غير ذلك كثير ، أي و المعذرة إن قلت لكم ، كأن بكم بلادة مطلقة لا حد لها .

قال :

مهلاً عليّ ، فأنا لا أفقه شيئاً مما تقول .

قلت لحماري :

و هل قلت شيئاً لا يقدر على فهمه كل شخص ؟

قال :

يا سيدي ، لا تنسَ أني حمار ، و لو كنت أفقه ما تقول لما كنت حماراً .

قلت :

و ماذا في قولي مما لا يمكن فهمه ؟

قال :

كل شيء ، بدءاً من كلمة إحساس و إنتهاءً بكلفة ملهوف .

قلت :

و لكنك حمار كبير ، و الأجدر بك أن تكون على الأقل تعرف معاني هذه الألفاظ .

قال :

بل أعجب أنا منك ، بأنك تجد فرقاً بين حمار صغير و الحمار الكبير ، يا سيدي إذا حافظ الحمار على حميرته يبقى دائماً حماراً ، و أنا كغيري من الحمير أخلصنا لهذه الحميرة و حافظنا عليها فتأصلت عندنا ، فكلنا صغارنا و كبارنا حمير .

قلت :

بل عجباً منكم و منك ، أنك تعي أنك حمار ، و ثانياً ...

قاطعني قائلاً :

رحم الله إمرءاً عرف قدر نفسه .

قلت :

و ثانياً أنك و عشيرتك من الحمير ترضون بقاءكم حميراً لا تفقهون .

قال :

يا سيدي إن سمحت لي يوماً آخذك لقومي فتعاشرنا و تخالطنا مدة ، فتقدر حينها أن تتعرف جيداً على عالمنا .

**

سكت و عدت إلى نفسي أحادثها بعد أن طرقت ملياً :

يا إلهي لقد أفهمني حماري دون أن يشعر أني أجهل أحد أهم جوانب الحياة الإجتماعية ، التي لا بد لكل من يدعي الأدب أو الفكر أن يكون عالماً بها ، فكيف بي تراودني فكرة أن أعلم حماري ، و أبنيه بناءً فكرياً إذا كنت نفسي أجهل مقدار الفكر و الفهم الذي يحمله ، و يحمله باقي الحمير .

بل أظن أنه يتوجب عليّ أن أتعلم كذلك نفسياتهم و عقلياتهم ، و أغوص في أعماقها ، بل و لا بد كذلك من تعلم كيفية مخاطبتهم بما لا يصادمني بهم ، و يرتضون كذلك ما أخاطبهم به .

و صدقت بداهة حماري بأنه عليّ معاشرتهم و مخالطتهم ، إن كانت لديّ الرغبة أو الإرادة لتغيير عقولهم و إصلاح أحوالهم ، و إلا كنت كالذي يضع الفعل في غير موضعه ، فيقدم للأسد شعيراً ، و للحمار لحماً للأكل ، جهلاً لعوالمهم .

و لكن إلى هنا لم آخذ على عاتقي هذه المهمة بإرادة ، فالإرادة شيء و الرغبة شيء آخر ، فالإرادة مناطها العزيمة و العمل لتحقيق الغاية ، أما الرغبة فقد تتوقف عند الأماني ، مع قليل من العمل و إنتهاز الفرص .

أما إن أردت ذلك فعلاً فيجب أن أخلص لما أردت ، و إذا أخلصت وجب عليّ تحمل تبعات هذا الإخلاص من واجبات و تكاليف و مشقة ، شأنه شأن أي فعل آخر ، و بهذا القرار وجب عليّ فعلاً مخالطة الحمير و معاشرتهم كما رأى حماري .

أما الإرادة لتغيير واقع ما ، فهي لا تكفي وحدها للتغيير ، فقد يقوم أحدهم بتغيير واقع ما ، و ينجح بتغييره ، ولكن إلى واقع أسوأ من الذي قبله ، فيكون الذي قام بالتغيير قد أساء ، بالرغم من كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل ، بدلاً من الإحسان .

و لذلك يجب أن أحذر في مشروع التغيير الذي أعزم عليه ، لألا يكون نكداً و هماً و شراً على الحمير ، بدلا من يكون لهم تحريراً ، فأكون من المفسدين المضلين ، بدلا من أكون من المصلحين .

و لذلك على الإنسان أن يفكر ملياً في صحة و صدق ما يحمل ، و ثانياً إذا كان ما يحمل ليس من ضرب الخيال و الوهم ، و ثالثاً أن يفقه و يتقن الكيفية التي يريد أن يغير بها واقع مجتمع ما ، و إذا ما كان قادراً لوحده على أمر جليل كهذا ؟

أضف إلى ذلك المصاعب التي تواجه أحدهم في سبيل مشروع خطير كهذا .

يا إلهي ، أظن أني قد ذهبت بعيداً و تماديت بأفكاري من تغيير واقع حمار ما ، إلى تغيير واقع كل الحمير و تغيير علاقاتهم و أفكارهم .

إن الأمر الآن يبدو لي واضحاً و جلياً ، أنه في غاية الصعوبة و التعقيد ، و أنا لا أحب الأفكار التي تحبط العزائم ، و تضعف الهمم ، ثم تقود الإنسان إلى الكسل ، لكن بالرغم من وجوب الوعي بكل هذا ، فالواقع النظري يختلف في جوهره ومظهره عادة عن الواقع العملي .

على أي حال ، لن أقدر على معاشرة الحمير أو مخالطتهم ، بعد أن أكرمني الله بنعمة العقل و الفكر الراقي ، لأني لن أحسن مخاطبتهم باللغة التي يحبون ، ثم إن الفكر الذي أحمل قد صنع بيني و بينهم حاجزاً و فجوة لا أستطيع بعده أن أتخطاه فأنزل إلى مستواهم الفكري المنخفض ، و لا هم يستطيعون أن يتخطوه فيصعدون إلى مستوى الفكر الذي أحمل ، ولذلك سأكتفي بحماري و الحديث إليه ، و التفاعل معه و دفعه للتفاعل معي ، و ربما سأتمكن من خلاله التعرف جيداً على عالم الحمير ، و عندما أتمكن من تغييره ، يكون هو الذي سيحمل فكري إلى عالم الحمير الذين يفهمونه و يفهمهم ، و يكون بذلك وزيري إليهم .

عاودت الحديث مع حماري فقلت له :

إذن فحدثني عن عالم الحمير شيئاً لا أفقهه .

قال حماري :

لقد كان من أجدادنا من هو حكيم مثلك ، يردد كلاماً لا نفهمه ، و لا يفهمه إلا قليلون ، و كانوا هم الذين بيدهم مقاليد الأمور ، وهم الذين يأمرون و ينهون و يحلون و يربطون ، ثم مر على هذا الحال أزماناً ، فأهملوا هم من حولهم ، و صار المال و

العلم لا يُتداول إلا بينهم ، و في نواديهم ، و قد كان من حولهم يأتمرون بأمرهم و ينتهون بنهيهم ، و لم نكن من قبل ذلك حميراً ، إلى أن شح العلم و المال بيننا ، فقلّت حيلتنا ، و لم نعد نميز بين الخير و الشر ، و الخبيث من الطيب ، وما هي منابع الخير ، و ما هي منابع الشر ، فمَكَّرْنا لهؤلاء القلة القليلة الباقية من علمائنا و حكمائنا ، فقتلناهم بدلاً من أن نصلح شأنهم أو نمهلهم .

فإنقطع ما بقي عندنا من خير ، و إزداد حالنا سوءاً ، ثم قمنا نبحث عن ما يسد جوعنا ، و يستر عيالنا ، فلم نجد من حكمائنا بقية نعود إليهم ، علّهم ينقذوننا ، و لكنا لم نجد إلا أشراراً منا إستحوذوا المال و الأرض و كل شيء .

ففزعنا إليهم فابتلونا و تفحصونا ، فمن كان منا حماراً قربوه ، و من كان منا بين ذلك طمّعوه حتى إستحمر .

و من لم يرض بذلك مات جوعاً أو قتلاً ، فرضخ بعضهم و تذلل حتى أصبح من زمرتنا ، و أصبحنا كما ترانا كلنا حميراً .

قلت لحماري :

لقد صورت لي الأمر بشكل حسن ، و لكن ألا تطمحون الآن أن تكونوا أسياداً كالذين كانوا من قبلكم ؟

أوَلم يظهر من بينكم أحد الآن أو من قبل سعى لأن يعيد أمجادكم ؟

قال حماري :

يا سيدي ما قد فات فقد مات ، و ليس هو في يوم راجع أو آت .

ويحك ياسيدي ، عن أي مجد تتحدث ؟

لقد أصبحنا كلنا حميراً ، و نحن سعداء بما نحن فيه ، من إستغبى منا و عادت تساوره أحلام المجد الذي تتحدث عنها ، قمعه القامعون و كتموا أنفاسه ، و شردوا عياله ، و دمروا عروش بيوتهم على رؤوسهم .

قلت :

أوَلا تتمنون أن تكونوا ذوي سلطان و مجد و سيادة و عزة ؟ و هو أمر يتمناه بالفطرة كل مخلوق ، إنساناً كان أم حيواناً .

قال :

بلى ، بلى ، ياسيدي .. كنا قديماً تساورنا الأماني و تسامرنا الآهات عن الماضي التليد .

قلت له :

و الآن ،، ؟

قال :

الآن ؟؟ ،، لم نعد الآن نتمنى حتى ،، فقد إعتدنا أن نبقى حميراً .

قلت :

و ماذا عن تاريخكم ؟

قال حماري :

لقد قالوا لنا أن تاريخنا و أمجادنا كانت عظيمة ، و بلغ سلطاننا مشارق الأرض و مغاربها ،، ثم تغير الكلام و قالوا لنا أن ذلك لم يكن ، بل كنا متفرقين و متنازعين ، و

يقتل بعضنا بعضاً ، بل قيل أنه لم يكن يشغل حكامنا إلا النساء و الجواري ، و أن خلفاءنا لم يكن يشغلهم إلا بناء القصور ، و تبذير الأموال على الشعراء و المقربين ، و مجالس اللهو و غير ذلك كثير .

قلت لحماري :

و أي الخبرين تصدق ؟

قال حماري :

ياسيدي ،، نحن معشر الحمير إن صدّقنا أن الأرض قد سادت لنا يوماً ، فنحن نصدق ذلك على مضض ، لأننا لا نتصور هذه الحقيقة أساساً ، و لا نجرؤ أن نقول للناس عنها ، و نحن الآن كما ترى في زمرة الحمير ، فنتعرض لسخرية الساخرين .

و الأفضل أن نقول بما يتوافق مع واقعنا الآن ، أنّا كنا كما نحن عليه الآن ، لأننا لو قلنا بما تؤكده الحقائق التاريخية ، فسيزيد العالم تحقيرنا و الإستخفاف بنا ، كوننا أهملنا حضارتنا و تحولنا من عقلاء إلى حمير ، و كفى ما بنا .

بل سنتعرض لسخرية أبنائنا و أحفادنا ، كوننا راضين بما نحن فيه ، و لا نعمل لتغيير واقعنا .
ثم إن قلنا ذلك ، فكأننا نطالب ضمناً بأن تعود الحال القديم إلى أصلها ، و هذا مالا طاقة لنا عليه ، و يكلفنا كثيراً ، و يجعلنا نلقى مصير من سبقونا و طالبوا بحريتهم فقتلوهم و سجنوهم و عذبوهم .

و لذلك فإننا نرى ، حتى و لو كان ذلك فيه مغالطة لأنفسنا ، و التاريخ و الناس أجمعين ، أن حالنا الآن هو خير من حالنا قديماً .

أو نسكت فلا نقول شيئاً ، و هذا خير لنا و لغيرنا .

**

عدت إلى نفسي أحادثها و أقول :

و الله لقد أدهشني حماري كثيراً ، و أكثر ما أدهشني هو منطقه ، فلم أكن أتصور يوماً أن بين الحمير حماراً واحداً يفهم و يعي ما يعيه حماري ، لقد قللت سامحني الله من شأنه كثيراً و أسأت الظن به ، و ربما بعالم الحمير أجمع ، و يحسن بي أن أصلح من شأن ظني بهم ، و ما قد أخطأت في حقهم ، و يحسن بي أن أتبين الأمور مرات قادمة قبل أن أستعجل الحكم عليها ، و خاصة فيما يتعلق بعقول الناس و نفسياتهم ، و إن في المسألة لبيان .

بالرغم من ذلك فإني أرى تناقضاً فيما أرى من واقع ، فلماذا إذاً بقي حماري حماراً ، وباقي الحمار مثله ، إذا كانوا يعون ما يعيه حماري ؟ .

يجب عليّ أن أتبين ذلك لاحقاً ، لربما يكون حماري هو الوحيد الذي يعي ما يعيه من بين مئات الملايين من الحمير ، فأكون قد قست الشاهد على الغائب خطأً .

و لكني أسائل نفسي فأقول : أوَ لو جمع الحمير أمرهم و شتاتهم قليلاً لتغيير حالهم ، أما كان لهم ذلك ؟ ،، فتعود لهم الأرض مهداً و الجبال عروشاً ؟ و لا أراهم إلا أنهم أكبر رؤوساً و أعظم أجساداً ، و أكثر تحملاً ، و أنجب شعوباً ، و أدأب حركة من غيرهم ، فلماذا يبقون حميراً ؟ و لماذا يركبهم الراكبون ، و يجلدهم الجلادون ، و يمتطي ظهورهم السفهاء و الجاهلون ، و يذلونهم و هم راضون ؟ .

لقد بت مشغولاً بأحوالهم ، مستديم الفكر بواقعهم ، فهم أكثر الأمم فقراً و مرضاً ، و جهلاً و ذلةً ، حتى أن العالم إن أراد أن يسخَر بأحد ، فلا يسخر إلا بهم ، و قد بقوا مضرباً للأمثال و للعيرة ، و أقبح الأمم سيرة .

لا بد من وجود خلل ما عنيف عندهم ، و لا بد من دراسة نفسياتهم و الفكر الذي يحملونه ، و المبدأ الذي يتبعونه ، و يبنون عليه أفكارهم ، أو أن الخلل يكمن في طريقة تفكيرهم ، أو في المقاييس التي يقيسون عليها أعمالهم و حل مشاكلهم .

لقد إستفزني حماري كثيراً لأن أخوض غمار تحدٍّ عجز النجاح فيه كثير مثلي و أفضل مني ، و أبلوا شبابهم و أفنوا عمرهم فيه ، و هو تغيير عالم الحمير إلى عالم عقلاء مثير .

قلت لحماري أمتدحة :

لقد أعجبني ما قلت آنفاً ، و أكبرت فيك وعيك و ذكاءك .

قال يهز رأسه الكبير فخوراً :

نعم ،،،

نعم ،،،

قلت :

و لكن أمَا كان من الأجدر بك و بغيرك من الواعين ، أن تستغلوا هذا الوعي و هذا الفهم فتنهضوا بأنفسكم ، بدلاً من الرضا بقاؤكم حميراً ؟ .

قال حماري :

مهلاً يا سيدي ، أرجو أن لا تخطيء في حقنا أنا و قومي ، ولا أراك إلا فاعل ذلك .

قلت :

المعذرة إليك ، و ما ذاك ؟

قال :

إني و عشيرتي من الحمير فخورون بأننا حمير ،، و لا أرى في ذلك عيباً أو نقصاً ، و نحن نقوم بأعمال لا يقوم بها غيرنا ، فنحن نحملكم و نحمل الأثقال ، و نجر العربات ، و تكسبون من خلالنا أموالاً كثيرة .

ثم لماذا تتهموننا بالتقصير ؟

قلت لحماري :

ما عاذ الله أن أفعل ، و ما ذاك ؟

قال :

إتهمتني و عشيرتي بعدم القيام بأعمال النهضة .

قلت لحماري :

و ماذا تفعلون إذن ،، في سبيل النهضة ؟

قال :

ألا ترى عضلاتي و رشاقة جسمي ؟ ،، ألا يكفيك هذا دليلاً على ممارستي الرياضة و تفوقي على غيري من أبناء الأمم الأخرى ؟

ثم ألم تقرأ عني و عن كثير غيري من الحمير في الصحف ، و تشاهد في الإعلام تفوقنا على باقي الأمم ، في كل المجالات الرياضية ؟

ثم ألا ترى تفوقنا " أمة الحمير " من ضمن باقي الأمم المتفوقين في شتى فنون الغناء و الموسيقى و الرقص و التمثيل و الفنون التشكيلية و غيرها ؟

حتى التي لم نتفوق فيها فإننا ننافس غيرنا فيها ، و المستقبل أمامنا لأن نسبقهم عليها . ثم ألا تسمع عن أبطالنا في سباق السيارات و القوارب البحرية ، و مسابقات الجري و القفز و كرة القدم ؟

إن هذه يا سيدي كلها مشاهد على نهضتنا .

**

سكت ملياً و قد أصابني الذهول لما سمعت ، و أنا أقول في نفسي وامصيبتاه ، و يا خيبة أملي ، بعد أن عقدت آمالاً عظيمة على حماري ، و ذكائه و وعيه ، أجده يفخر بحميرته ، بل و يظن أنه و عشيرته من الحمير قد سابقوا و سبقوا الأمم في النهضة ، بأن سبقوهم في الرياضة و الفن ،، صحيح أن ما قد أنجزوه قد نسميه نهضة رياضية ، و لكن تلك ليست هي النهضة الصحيحة ، التي تنقلهم من عالم الحمير إلى العالم الراقي .

لو رددت عليه كلامه الآن و هو في غاية حماسه ، فقد يحصل ما لا تحمد عقباه ، و أعرّض نفسي لسوء أدبه أو شتمه أو قذفه أو صياحه أو رفسه ، أو أن يقذفني بأي تهمة لا تليق بمقامي ، فهو في قمة نشوته بفخره بحميرته و قوة عضلاته ، فما مجادلة الجاهل إلا إحدى المجازفات الجريئة الخطيرة .

و لكن رب ما سمعت منه الآن حسناً ، لأتعرف أكثر على عقلية هذه الأمة ، قبل أن أقوم بعملية قد تكون عواقبها دامية لا سمح الله ،، فلأؤجل حديثي إليه إلى مناسبة أخرى .

لم أظهر له موافقتي و لا معارضتي لما قال ، لأشعره بما في نفسي أني غير راض عما يتحدث به ، رغبة في إستدراج مودته من جانب ، حيث أحترم رأيه و أنصت له ، و لأشعره أن هناك رأياً آخر يخالف رأيه من جانب آخر .

رددت قائلاً لحماري :

بلى إني أدرك قدراتكم الرياضية و الفنية ، و أكبر فيكم همتكم و دأبكم و طموحكم ، و ما قد أنجزتموه في تلك المجالات .

**

ثم أكتفيت بهذا الرد دون أن أتبعه بكلمة " لكن " حتى أدع الباقي لجولات قادمة يكون هو قد فكر فيما قاله لي " و عساه يفعل " ، و فيما رددت به عليه من جواب مقطوع .

هذه المداراة مني له أجدها ضرورية ولا بد منها ، بل إني أجدها من حسن الخلق لمن أراد أن يجادل شخصاً آخر ، حتى ولو كان حماراً ، فالإعتبارات المركزية ، و وضع السيد و المسيد أثناء الجدال هي من فساد الأمور ، و مدعاة للنفاق و التصنع و كتم الحقائق ، لذا فإنه لا بد من تساوي المتجادلين أثناء الجدال ، إلا فيما يتعلق بتلقي العلم ، حتى يحصل الحوار و تبادل الآراء .

و إلا فإن الجدل و الخلاف سيسود الحوار ، إذا ما أشعر أحد الأطراف الطرف الآخر أنه خيراً أو أعلم أو أشرف منه ، حتى ولو كان هو في الحقيقة كذلك .

لقد قطع عليّ حماري طريق الجدال معه عندما قال بفخره و رضاه بحميرته و قومه ، و أنه لا يرى بأساً فيها ، و بالرغم من ذلك فإني لا أرى أن رضاه هذا يقينياً ، لأني ألمس أنه ناتج عن كسل أو خوف من المعلوم و المجهول ، أو ناتج من التعود على الذلة و الخضوع و التسليم ، و قد يكون هو رأي حماري فقط دون باقي الحمير .

على أي حال فإن الرأي الخطأ ، أو وجهة النظر الخاطئة دائماً ما تجد سبيلها إلى الإعتدال و التغيير بسهولة و يسر ، إذا وجدت برهاناً عقلياً يبرهن على خطئها .

عدت أتحين الفرص للحديث إلى حماري بما أريد أن أحدثه به ، و أنا في حيرة من أمري هل أعطيه مما عندي ، أم آخذ مما عنده ، لأتعرف على عقليته و قومه أكثر ، حتى إستفززته بسؤال عندما مررنا بحمير ظاهر عليهم الفقر و الحال السيء . و حيث أن هذا المشهد يتكرر علينا كثيراً ، وجدته سبيلاً لإستثارته و معرفة وجهة نظره .

فقلت لحماري :

ما تقول في أعداد الحمير الهائلة هذه من المساكين الذين لا يجدون قوت يومهم ، و الذين نراهم بأم أعيننا ، و الذين يمثلون الأغلبية الغالبة بين مئات الملايين ، في حين أن القلة القليلة منكم هم الذين يملكون الأموال الطائلة المتطاولة ؟ .

رد حماري قائلاً :

و ما شأني بهم ؟

كل واحد بصير بنفسه ، لو جعت يوماً فلن يسأل عني أحد منهم .

قلت :

أوَلا يؤلمك حالهم ؟

قال بقليل من الإكتراث :

بلى ،، بلى .

و لكن ماذا عساني أن أفعل لهم ؟ أو أغير ما بحالهم ؟ ، لقد إختاروا هم أن يكونوا حميراً فقراء ،، و هذا جزاؤهم .

قلت لحماري :

و لكن منكم من هم حمير أغنياء .

قال :

إن هؤلاء الأغنياء حمير أذكياء ، عرفوا كيف يحتالون لأنفسهم و يسيطرون على موارد المال ، و هذا حظهم و نصيبهم الذي لا يلامون عليه .

قلت لحماري :

و لكن منكم من هم حمير أذكياء ، و لكنهم فقراء .

قال حماري :

لا ، هؤلاء ليسوا أذكياء ، الأغنياء هم الأذكياء .

قلت :

و لكنكم أكثر الأمم فقراً ، بالرغم مما تمتلك أراضيكم من ثروات هائلة ، و بلاد خصبة ، و ماء ، و زروع .

قال حماري :

لا أعرف لماذا .

قلت لحماري :

أولا تود أن تعرف ، فأرشدك ؟

قال :

لا ،، لا أود أن أعرف ، فما شأني و وجع الرأس ، و تكدير الخاطر ، دعني أبقى حماراً ، آكل هنيئاً ، و أنام مسروراً ، و أعيش مرتاح البال و الخاطر ، و ليكن ما يكون .

قلت :

و إن كان من أهلك من هو فقيراً ؟

قال :

لو كنت من أصحاب الملايين فقد أفكر أن أعينه يومها ، و أكون قد علمت أنه يعينني إذا ما أصابتني يوماً فاقة .

قلت :

إذن لم ينفعه أن يكون من قومك ، أو من أهلك .

قال :

أوَ لسنا يا سيدي حميراً ؟؟

**

أخذت أحادث نفسي :

إن هذا الحمار يوصد في وجهي الباب كل مرة ، بتسليمه المطلق بحميـرته ، و أنـه يضفي كل عجز لديه في الفهم أو السلوك المنحرف إلـى كونـه حمـاراً ، و يعتبـر بـذلك أنه إلتمس لنفسه و قومه العذر الصائب ، و كأن الحمار رفع عنه القلم ،،،

بل حقاً إن الحمار مرفوع عنه التكليف كغيره من بني الحيوان ، و لكن بالرغم من أن حمارنا هذا حمار مجازي ، فإني أنسى ذلك .

قلت لحماري :

أوَهذا رأيك ، أم رأي كل الحمير ، أن إذا أصـابت أحدكم مصيبة لم يعن أحدكم أخاه الحمار ؟

قال :

بل إنه رأي كل الحمير ، و هو عرف عندهم ، عجباً لك ،، ألا تعرف ذلك ؟

قلت له :

و إن فعل أحدكم خلاف ذلك ، و أعان أخاه الحمار عند المصيبة ؟ فما تقول في ذلك ؟

قال :

يكون فعلاً حماراً ، أي حمار الحمير ، مضيّعاً لماله و وقته و جهده ، و ليس له مقابل ذلك إلا بعض كلمات الإطراء و المديح الذي يستدرجه أكثر إلى تضييع ماله و إستغلال الحمير له .

قلت :

إذن أنتم لا تؤمنون بالقيم ، و بالتالي لا تسعون إلى تحقيقها .

قال حماري :

آخ ، لقد بدأت يا سيدي تدخل في فلسفات ، و تردد كلمات لا أفهمها و لا أعقلها ، فلا تسخر بي .

**

توقفت عند هذا الحد من الحديث إليه ، أستخلص لنفسي بعض الفوائد عن الفكر الذي يحمله الحمير .

و لقد أدركت أنهم لا يعون ماهية النهضة الصحيحة ، و لا يدركون ماهية القيم ، و لا حتى يدركون الألفاظ التي تعبر عنها .
و أدركت ماهية علاقتهم بالمال ، و موقفهم من الأموال .

و لكن يا ترى ما هي مواقف الحمير عن القيم التي تخص العلاقات الإجتماعية و الأخلاقية و السياسية ؟ حيث أن جميع القيم و السلوكيات مرتبطة بها ، و كذا العادات و التقاليد و الأعراف ، تقوم دائما على أساس مبدئي ، ينصبغ بهذا المبدأ الأقوام التي تحمله و تؤمن به .

فما هو يا ترى المبدأ الذي تحمله و تؤمن به الحمير ، و تحدد مفاهيمها و سلوكها بحسبه ؟ .

لقد بدأت تتكشف لي حقائق لدى عالم الحمير لم أكن أعلمها ، و بت تقلقني أحوالهم أكثر من ذي قبل ، و نما عندي الشعور بالمسؤولية إتجاههم ، خاصة أنهم باتوا يحكمون على من يفعل الخير لإخيه ، بالسفاهة و الجهل و الغفلة ، ما يعني أن الفقير عندهم و المعتر لا يصيبه منهم مال فيغنيه ، ولا يصيبه منهم قول معروف فيطمئنه ، فيقوى بالصبر .

أما كون المال يبقى بحوزة من عنده المال ، فهذا يعني أن المال أصبح دُولة بين الأغنياء منهم ، فلا يتمكن منه الفقراء ، سواء بالتجارة أو بالصدقة ، و أنه إن تقدم أحد من الأغنياء منهم بصدقة ، فإن صدقته مقطوعة ، قليلة للعيش و كثيرة للنجاة من الموت ، فلا تكون قد أحيت حياة كريمة ، و لا تكون قد أماتت صاحبها بسلام .

و هي التي إن دفعها الغني منهم دفعها من فائض فائض ماله ، إن لم يتبعها بحسرة أو تمنن أو ندم ، و هي التي إن دفعها الغني دفعها ليريح بها شيئا من ضميره المعذب ، فيشعر بشيء من السعادة و راحة البال ، هذا إذا لم تكن له مصلحة أخرى من ورائها .

و فيما يتعلق بالفقر فالحمير يعانون فيه من أمرين ، أولهما الفقر نفسه ، و الآخر كون أنهم لا يعرفون لماذا وصل بهم الحال إلى الفقر و المرض و الجوع ، بالرغم من ثراء أراضيهم و كثرة زروعها و خصوبها ، أما الأمر الأعظم أنهم لا يريدون أن يعرفوا سبب الفقر ، لألا يتحمل أحدهم تبعة المعرفة التي ستتعبه و تقض مضجعه .

قلت لحماري :

إني بت يؤرقني حالكم ، وما صرتم إليه ، و أصاب بشيء من الحزن و الأسى كلما عدت أفكر فيما تحدثنا به سابقاً ، عن أحوال الحمير و شؤونهم .

قال حماري :

عفواً سيدي ، لقد بت أنا أشك في عقلك ، هل أنت الحمار أم أنا ؟ .

قلت :

بل أنت .

قال حماري :

لماذا إذن تشغل تفكيرك بأمر غيرك ، و توجع رأسك ، و تقض مضجعك ، و تضيع وقتك و جهدك ؟

قلت لحماري :

لا تجعلني أظن في أنك فعلاً حمار .

قال :

أوَمازلت تشك ؟

قلت :

أوَتلومني ؟ بل و تتهمني بالسفاهة و قلة العقل أني أخلص لك و لقومك من الحمير ، و للفقراء و المحرومين و المظلومين منكم ؟ .

قال حماري :

ألا تدعك من هذه الأفكار السقيمة التي لا تسمن و لا تغني من جوع ؟ ، و التي لا تؤدي بصاحبها إلا إلى الهلاك ؟ ، ثم من هم هؤلاء الحمير الذين تريد أن تضحي من أجلهم ، و تشغل نفسك بهم ، و تحزن لهم ، و تشغل فكرك بحالهم ؟ ،، إننا يا سيدي أقل قدرٍ مما تتصور ، و لسنا جديرين بهذا الذي تفعل .

مخلص ،، صادق ،، فقير ،، مظلوم ،، عم تتحدث ؟ و ما هذه الكلمات التي ترددها ؟ و التي لم أسمع بها إلا عندما يتحدث بعضهم عن التاريخ ، أو بعض الحكواتيين .

قلت لحماري :

و بماذا تريدني أن أفكر إذن ؟ .

قال :

فكر في المال ، المال ، المال ،، المال هو كل شيء ، و هو رمز القوة و العزة ، إنك بالمال يا سيدي تستطيع أن تمتلك المئات مثلي ، و تستطيع عندها أن تسخرهم لكل شيء تريد و تدوس على رقابهم حتى ،، ثم سيحترمك الناس و سيقدسونك و سيبجلونك ، و يسبحون بحمدك ، و تقدر أن تعيش ملكاً بينهم .

أنت تعلم يا سيدي أنك تستطيع بالمال أن تعيش حياة كريمة ، و تتزوج من النساء ما شئت ، و تمتلك من السيارات و البيوت أرفهها ، و تستطيع أن تدور العالم كله ، و تغرف من متع الدنيا ما شئت .

أظنك يا سيدي في حاجة لأن تفكر في نفسك قليلاً ، قبل أن ينتهي عمرك و تفقد كل شيء ، ولن يسأل عنك بعدها أحد من الحمير أو العقلاء .

قلت :

و من قال لك أني أسعى لإمتلاك رقاب الناس أو قلوبهم أو عقولهم ؟ أو أني في حاجة إلى سلطان على الحمير ، حتى أسعى لشرائهم أو تسخيرهم ، أو شراء إحترامهم أو تسبيحهم ؟ ، إني يا حماري أحدثك عن فقرهم و سوء حالهم .

ألا تفكر في الله ؟ أولا تؤمن بالبعث و النشور ؟ والجنة و النار ؟ و الحساب و العقاب ؟ .

قال حماري ببرود مفرط :

بلى ، و لكن أؤكد لك أن تفكر في نفسك الآن ، فلن ينفعك في هذه الدنيا أحد من الناس ، حميراً كانوا أم عقلاء ، فقراء كانوا أم أغنياء ، و ما لك و لهذا كله ؟

**

ساد صمت هالك بيننا و كأني فعلت سفوراً ، أو قلت فجوراً .

إني أشعر أنه يستخف بي و بحديثي و فعلي ، و إهتمامي بالحمير و فقرائهم ، و المظلومين منهم ، فما بالي به الآن و أنا أحدثه عن البعث و النشور ، و الحساب و العقاب ، و الجنة و النار ، أظن أني بذلك الآن قد بلغت عنده أقصى مبالغ التخلف و الرجعية .

إني عالم بأن الحمير محتارين في أمرنا نحن العقلاء ، فهم تارة ينظرون إلينا كحمير مثلهم ، بل ربما أكثر منهم حميرة ، و تارة يُكبرون فينا العقل و العلم إلى درجة التقديس ، دون محاولة أخذ شيء منه .

أما مسألة أن أحدهم يجادل أحد العقلاء فهذه من أعقد الأمور ، و أكرهها على نفوسهم ، و أنكدها فعلاً ، فلأكن شاكراً لحماري إستعداده لمثل هذا الفعل و مجادلته إياي ، فقد تميز حقاً عن باقي الحمير بذكائه و إستعداده للجدال ، فلأعذرنه على جهله العميق ، ولا أنسى أنه ينتمي إلى عالم الحمير .

سأترك الجدال معه فترة من الزمن فيما أرغب الجدال فيه ، حتى أستشعر أنه عاد يأنس حديثي ، خوفي أني قد أثقلت عليه ، فلا أراه الآن إلا ممتعضاً ، فلأتقينه ببعض الأحاديث التي يحبها .

و لقد تعلمت كيف أستدرج حماري و غيره من الحمير للأحاديث ، فلا أكاد أحدث أحدهم عن النساء حتى تتهلل أساريره ، و تبرق عيناه ، و تبرز أسنانه ضاحكة مستبشرة ، مستأنساً لي و لحديثي ، حتى أكاد أكون له وليّ حميم .

لقد تبينت من آخر حديث إليه ، أن الحمير يولون المال قدرا عظيماً ، بل إنه لهم كل شيء في الحياة .

و تبينت كذلك أنه ليس لديهم نظام محدد يسير علاقاتهم غير النظام القديم البدائي المعروف منذ القدم ، و هو نظام الغاب ، الذي في ظله تغيب كل القيم الطيبة ، و يغيب فيه أي فكر من شأنه ينظم العلاقات المالية ، كأفراد أو كجماعات أو كأمة .

هذا النظام هو الذي يسعى فيه كل فرد لإشباع غرائزه و حاجاته العضوية بأي وسيلة ، و بأي طريقة كانت ، دون النظر إلى مصالح الغير أو أنفسهم و أرواحهم ، أو كرامتهم ، أو النظر إلى ظلمهم على جميع مستويات تركيبتهم الإجتماعية .

و دون أي إعتبار للقيم الروحية أو الإنسانية أو الأخلاقية ، فيستأثر بالمال و السلطان منهم من أوتي من القوة و السلاح ما لم يؤت غيره .

و بذا يسود بعضهم بعضاً ، فيتداول المال بين من يتساوون في القوى ، فيتبادلون مصالحهم دون غيرهم ، و يبقى من الفتات لمن لم يستطع مجاراة أصحاب القوة هؤلاء .

فتنفجر نزاعات من حين لآخر ، كلما وُجد سبيل إلى ذلك من غير أصحاب القوى ، و هكذا دواليك .

ثم يأتي من حين لآخر حكماء ، قد أساءتهم النزاعات على المال و السلطان ، فيحاولون جهدهم لوضع نظام يتعارف عليه الناس ، و به يتسالمون ، فيتراضون ، ثم يأتي غيرهم فينقض ما تعارف عليه من كان قبلهم ، فترجع الأمور إلى نظام الغاب الحيواني ، يأكل كبيرهم صغيرهم ، و قويهم يأكل ضعيفهم .

ولا يزال هذا النظام يتمثل في عالم الحمير على كل المستويات الفردية و الجماعية ، و كذلك الدولية دون إستثناء ، في صورة النظام الرأسمالي ، الذي تعددت و تنوعت فيه وسائل الإستغلال و الإستئثار بالأموال و التمكن منها ، و نزعها من أيدي مالكيها ، حتى أنه لم يعد للفقراء سبيل إلى المال و سد الإحتياجات ، إلا أساليب القرصنة الفردية كالسرقة أو السطو ، أو الرشوة أو الإغتصاب ، أو الغش و الإحتيال ، و ما يتبع ذلك من كذب و لف و دوران ، و تصيد المغفلين و الفرص في سبيل المال ، أو السير في فلك المستحوذين على المال صالحين كانوا أم مجرمين .

أريد أن أخلص بهذا ، إلى تبيان أثر هذه العلاقات المادية المنحرفة في العلاقات الإجتماعية ، حيث أن عالم الحمير يعاني أشد المعاناة من التفكك الإجتماعي الذي سادت فيه الرابطة المصلحية فوق كل الروابط .

فالكل يلهث خلف المال بحق و بدون حق ، و حيث ما تكون المصلحة يُولي الفرد منهم وجهه ، حتى و لو كان إلى عدو له ، و يولي الفرد منهم عن وجه شقيقه أو والديه أو صديقه أو صاحبته أو بنيه ، إذا لم تكن عندهم مصلحة يرجوها .

و تهول المصيبة عندما يعقد أحدهم مع الآخر عقداً لأجل مصلحة ما ، ثم تزول تلك المصلحة ، فتنقلب تلك العلاقة إلى عداء و شر مستطير .

و على هذه المقاييس من العلاقات تقوم علاقاتهم ، فيؤدي ذلك إلى تحلل مودتهم كما تنحلّ الفصوص من عقدها ، فتتلوث العلاقات الودية بين أفرادهم بكِير المصلحة ، فإذا أخفق تبادل المصالح بين المتوادين ، أو تفاوت ، أي دون مقابلة المصلحة بمصلحة تضاهيها أو تعادلها ، فلا تلبث تلك المودة إلا و أن تنفك و تذهب أدراج الرياح ، بل و تنقلب إلى عداء أحياناً .

وفي تبادل الهدايا و الزيارات و العيادات بينهم خير مثال ، إذا لم يقابل أحدهم الهدية أو الزيارة أو العيادة أو العطاء بمثله أو أحسن منه ، هذا إذا سلمت تلك من الملامة الخبيثة و الظن السوء ، و ملافظ المنة و الأذى .

**

أخبرت حماري بما خلصت إليه من رأي في علاقاتهم القائمة على المصلحة ، وما ينبثق منها من تفكك إجتماعي ، وتحطيم لأواصر المحبة بينهم ، وهدم لعلاقاتهم ، و كأني به لم يفهم جلّ ما قلته له .

فرد علي قائلاً :

و هل عساك تريدني أن أحسن لمن لم يحسن إليّ ، فأهدي هذا و أعطي ذاك ، و أعطي هذا ، و أعود ذاك في مرضه ، و أعين الآخرين في مصائبهم ، و لا يُقابل فعلي بالمثل ؟

آثرت أن أخاطبه خطاباً عقلياً فقلت له :

لو أنك لم تفكر بالفعل المقابل ، و المصلحة المقابلة ، فغيرك سيتعلم منك و سيسود بينكم مستقبلاً عرفاً جديداً يكون مآله خيراً لكم جميعاً .

قال لي :

و لِمَ تريدني أن أكون أنا الضحية ؟ ،، و المكافح بماله و نفسه من أجل هدف لن يتحقق أبداً ، ثم إنك يا سيدي لا تعرف عالم الحمير ، فنحن لا نتعلم كما تتصور ، نحن منشغلون بأنفسنا و شهواتنا و التفكير فيها وكفى ، و لا نجد بأساً فيما نحن فيه ، ، و غير ذلك نعتبره خيالات و أوهام لا يقوم بها إلا المراهقون .

قلت لحماري :

و لكن التفكير في النفس ليس له حدود ، و إشباع شهوات النفس ليس له نهاية تحجّمه ، إذا لم ينتهِ الإنسان بإرادته عنها ، و بالتالي فإن حالكم المنحرف سيزداد بإضطراد إنحرافاً .

قال :

لو كان الأمر غير الذي وصفت يا سيدي ، لما كنا حميراً ، ثم إني و الحمد لله لم أشتكِ إليك شيئاً من حالي ، فعندي كل شيء يكفي حاجتي من أكل و شرب و مال .

،،،، يا سيدي من راقب الحمير مات هماً ،،،،

قلت لحماري و العجب يزداد عندي بزيادة الحديث معه و توالي الأيام ، أنه حتى الأمثلة التي يستخدمها هو و عشيرته الحمير ، يستخدمونها في غير موضعها ،

قلت :

يا حماري ،، أولا تصيبك الغيرة والألم على حالكم ؟ و حال المساكين منكم ؟ و هم كثير ، و قد يكون من بينهم من هم من أهلك و قبيلتك .

قال حماري :

أوَهل أصابت أحدهم الغيرة أو الألم على حالي ، عندما أصابني يوماً ما أصابني ؟

**

طفقت أضحك على الأصالة في التفكير المصلحي عند حماري ، و شر البلية ما يضحك ،، و قهقهت ضاحكاً و هو ينظر إليّ بعينين فاقدة كل علامات التفاعل حسب ما يمليه الحدث كعادته ، فهو و غيره من الحمير لا يعيشون الأحداث بقلوبهم و عقولهم ، بل يعيشونها بأسماعهم و أبصارهم مجردة من ربطها بالعقل و القلب .

إنهم إن رأوا أحد إخوانهم من الحمير أو غير الحمير أصابتهم كارثة أو مصيبة ، أو سمعوا بها فذلك لا يحرك فيهم ساكناً ، فهم يقفون عند الحدث يسألون عن كيفية

حدوثه ، و لكن لا يهتمون لأسباب حدوثه ، و كيفية تجنبه ، و لا يهتمون لأي أسئلة قد توصل إلى علم أو فهم عميق ،، عجباً .

أما تفاعلاتهم الشعورية للمصائب والكوارث ، فهي موظفة توظيفاً مقنناً ، و مرتبطة إرتباطاً منضبطاً مع المصالح الشخصية لكل منهم ، بالقدر و الكيفية التي تحافظ عليها و تحميها .

****

الفصل الثاني

حماري و العيد السعيد

جاء أحد أعياد الفطر في سنة من السنين، و هو أجمل الأيام عندي ، كغيري من العقلاء ، و لكني كنت في غاية الكدر و الضيق ، فقد كنت أتابع الأخبار ، حيث هجم شعب من الحمير الصفر الأقوياء بطائراتهم و دباباتهم ، و بكل أنواع الأسلحة المدمرة الفتاكة على شعب حمير سمر من الضعفاء ، و دكوا بلادهم و بيوتهم دكاً ، و أحرقوهم أحياءً ، و قد أناروا ليالي العيد في تلك البلاد بالنيران ، و أظلموا نهاره بالدخان .

و إذ بحماري داخلاً في أجمل صورة و أبهى زينة و أزكى رائحة ، يهنئني بالعيد السعيد .

فسألته متعجباً بعد أن هنأته بالعيد :

ألم تسمع بعشيرتك من الحمير ، كيف أن عدوهم قائم عليهم الآن قصفاً و تدميراً و قتلاً ؟ و أنا أراك و قد بدت كل أسنانك ، يعلوك السرور ؟.

قال لي و كأنه أخفى وراء قوله غضباً ، بالطبع ليس من عدوان العدو ، و لكن غضباً من قولي له ، و انتقادي لعدم إكتراثه بما يحدث .

فقال :

أوَلم أنهك عن الحمير ؟

مالك و مالهم ؟ ،، ومالي أنا ومالهم ؟

فوالله لو أصابنا ما أصابهم ، لم يهتم أحد منهم بنا ، و لم يكترث لحالنا .

قلت لحماري :

أوَلا تألم لحالهم ؟؟ ،، و ما أصابهم ؟

قال حماري :

بلى ،، و لكن اليوم عيد ، و أحب أن أقضي العيد مسروراً به ، و فرحاً بمقدمه و أيامه .

**

حدثت نفسي : كيف أعجب منه و من حاله ؟ فلو تألم حماري لحال قومه في غير عيد ، لتألم لهم في العيد ، و هذا أراه أولى من ذاك .

طبيعي أن طريقة تفكيرحماري تتوافق تماماً مع طريقة تفكيره هو و عشيرته بما يتناسب مع علاقاتهم المالية و الإجتماعية ، فليس هناك بينهم إلا مبدأ المصلحة ، ولا وجود للقيم الأخرى .

و لكن أن يتعدى إضطراب الرابطة بينهم إلى درجة أن يُقتل أحدهم أو يُظلم ، أو يُعتدى على نسائهم أو أبنائهم فلا يتحرك لهم ساكن ، فهذا الذي لم أكن لأتصوره .

و ليست حادثة العيد تلك هي الوحيدة ، بل أن غيرها أفظع و أشنع ، و أجدر لأن تُدمِع العين دماً ، و ليس دمعاً .

فقد أحرقت الديار و دُمرت الضياع ، و شُرد العجائز ، و ذُبح الشيوخ و الشباب و الأطفال ذبح النعاج ، و أغتصب النساء و الفتيات جماعات ، و لم أر عند الحمير قد تحرك ساكن ، بل أن الأعياد يُستهل بها ، و الأفراح و الأتراح تقام عندهم ، يعيشون و كأن غيرهم من الحمير و العقلاء ينعمون في جنات النعيم .

قلت لحماري :

وما رأيك بقومك في بلاد كذا ، و بلاد كذا ، وبلاد كذا ، و بلاد كذا ؟ و قد أصابتهم مصيبة غيرهم كبلاد كذا ، و بلاد كذا ، و بلاد كذا .

قال :

و ما شأن حمار مثلي بأقوام ليست بأقوامه ؟ .

قلت :

أو ليسوا منك و أنت منهم ، و من جنسهم ؟ .

تنكر حماري لهم قائلاً :

لا ، ليسوا مني و لست منهم .

- لا أعرف لماذا تنكر لهم ، هل لأنه ربما يريد أن يكسب النقاش معي ، أو لألا أحمله مسؤولية حالهم ؟ ، أو لأنه بالفعل يعتقد يقيناً بعدم إنتمائه لهم أو إنتمائهم له ؟ .

قلت لحماري :

و من هم إذن قومك الذين تنتمي إليهم ، و ترفع السلاح من أجلهم ؟

قال حماري :

هم الذين من أصلابهم أتيت .

قلت :

و لكن هؤلاء الذين تنتسب إليهم ، قد يُعدون على أصابع اليدين فقط .

رد قائلاً :

ليس لي شأن إلا بهؤلاء ، تسميهم قوم أو أهل أو عشيرة ، أنا لا أميز بين هذه التسميات ، حتى الذين تدعي أنهم ينتمون لي و أنتمي لهم من الحمير لا يميزون ، و لم أر أحداً من الحمير الذين لا أعرفهم أعانني ، مدعياً أني أنتمي إليه أو ينتمي إليّ ، حتى الذين أعرفهم لا يفعلون ، أو الذين أنتمي إليهم نسباً كذلك ينكرونني .

إنه ليس بيني و غير من أعولهم شيئاً من تبادل الحماية أو المسؤوليات ، أو مما تتحدث عنه من مسائل ، و لذلك فلن أألم لأحد منهم ، و لن أذرف دمعة واحدة عليهم ، أو على أي من أبنائهم أو نسائهم ، فليس لي بهم شأن .

قلت لحماري :

و لكني رأيتكم يوماً معشر الحمير قد إجتمعتم متحابين متكاتفين صفاً واحداً كالبنيان الواحد ضد أولئك الحمير من جنسكم ، الذين هجموا على أرضكم فحاربتموهم و طردتموهم من أرضكم أذلاء ، و رجعتم منتصرين ظافرين ، و لقد أعجبني منظر إجتماعكم يومها ، و أعجبتني بسالتكم .

قال حماري :

نعم لقد كان منظرنا يومها مدهشاً و مثيراً ، و لكني لم أحارب معهم يومئذ انطلاقا من خوفي على أحد منهم ، أو على أهله أو أبنائه ، و لكني إستعنت بهم و إستعانوا هم بي ، لأن كل واحد منا كان خائفاً على أرضه و أبنائه و أهله .

و قد بدينا بخلاف باطن أمرنا يداً واحدة ، و قلباً واحداً حتى نتمكن من الظفر بعدونا ، و قد إنضممت لصفوفهم ليس حباً لأحد منهم ، بل حاربت معهم و عدت ظافراً معهم وأنا لم أكن لأحب أحد منهم قط ، و الحمد لله أني عدت و لم يصبني أذى و لم أمت .

**

لقد ثبت لي حقيقة أن حماري يؤمن ببراءته من أبناء جنسه من الحمير ، لا يربطه بهم سوى المصلحة ، و ليس هو مسؤول إلا عن رعاية أبنائه و زوجه .

و لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا حارب مع الحمير هؤلاء ، و لم يحارب مع الحمير من الطرف الآخر ؟ و هم جميعهم من نفس الجنس .

إنه كما قال حاربهم فقط لأنه خافهم ، و خاف على أبنائه و أرضه منهم كما غلب على ظنه ، فيكون إذن قد حارب من أجل حماية موطنه ، ليس إلا ، فحارب مع هؤلاء القوم و أعتبرهم هم قومه ، وأعانهم على غلبة غيرهم من الأقوام حتى يحقق مصلحته هو بذاته ، و يحقق هو سيادته على ماله و أرضه و يحميهما ، و هذا هو في الأصل مصلحة المصالح .

فالرابطة التي تربطهم ، هي تلك التي تنشأ عادة حينما يدافعون عن حماهم عند إعتداء غيرهم عليهم ، شأنهم شأن جميع الحيوانات ، عندما يعتدي عليهم أي حيوان آخر ، حتى و لو كان من جنسهم ، فيهبّون جميعاً يقاتلونه ، و لا يمتنعون عن قتال بعضهم ، حين يذهب عدوهم أو يكف عن قتالهم .

لأنه لم يجمعهم في القتال إلا رابطة الحماية و الذود عن الوطن ، والتي تُسمى الرابطة الوطنية ، التي لا تغني بوجودها ولا تدفع بذهابها نفعاً ولا ضراً عن أصحابها ، فلا يكون بينهم ألفة أو محبة أو تآخي بها ، ولا يكون ذلك بعدمها .

ثم إذا ما بدأ الذكران منهم خاصة يتنافسون و يتسابقون على سيادتهم لغيرهم من أبناء جنسهم ، وبلغ بهم التنافس على السلطان على سائر القوم أو تعداها إلى الأقوام الأخرى ، ثم حصلت لهم هذه السيادة ، إرتبط أصحاب السيادة و السلطان فيما بينهم برابطة قومية حتى يكونوا عوناً لبعضهم و سنداً للتسلط على الأقوام الأخرى ، وتثبيت و حماية هذه السيادة و السلطان ، و هكذا دواليك .

هذا المنحى الطبيعي الذي تمليه غريزة البقاء على بني الإنسان من أفراد و جماعات و أمم ، لا يصبغه بصبغة معينة إلا الضوابط الفكرية ، التي تسيطر على الميول فتسوقها إلى سلوك و كيفية معينة في طريقة التعامل و الإرتباط بالغير .

قلت لحماري :

إذن فأنت لا تربطك بالحمير الآخرين إلا الرابطة الوطنية و الرابطة القومية .

قال :

لقد قلت لك يا سيدي أنا لا أفهم هذا الكلام الذي تقول ، و لا أعي معنى هذه الألفاظ والمسميات ، حدثني بمثل ما تحدث به الحمير الآخرين .

قلت لحماري :

إن مشاعر الود التي تشعر بها إتجاه من ينتمون إليك و تنتمي إليهم ، قلّت أو كثرت ، هي ذلك الحبل الذي يربط بعضكم ببعض ، و بالرغم من ضعف هذا الحبل السفيه ، فهو يكشف عن رابطة ، تسمى الرابطة القومية .

و إن قل ذلك الود أو كثر و الذي تشعر به إتجاه من يحاربون معك للذود عن الوطن ، فهو ذلك الحبل الرابط بينكم ، و إنه و إن كان مؤقتاً ، إلا أنه رابط يسمونه بالرابطة الوطنية ، هل فهمت ؟

قال حماري :
نعم فهمت ، و لا تهمني هذه التسميات لهذه التي تسميها الروابط .

قلت :
و لكن يجب أن تهمك أسماؤها ، فكيف تريد أن تتحدث بشيء ، و أنت لا تعرف إسمه ، هل تريد أن تبقى حماراً ؟ !

قال :
دعني من هذا ، فأنا لا أشعر بأي ودّ لأي أحد من قومي .

قلت :
بل تشعر ، فإنك من قومك ، و تشعر تجاهه بود ، قد يكون أكثر من ذلك الود الذي تشعر به تجاه أبيك ، و الود الذي تشعر به تجاه أبيك قد يكون أكثر من ذلك الود الذي تشعر به تجاه أخيك ، و ما هو تجاه أخيك أكثر مما هو تجاه إبن عمك ، و ما هو تجاه إبن عمك أكثر مما هو تجاه إبن خالك أو خالتك .

و نفس الود الذي تشعر به تجاه قريبك ، أكثر مما تشعر بـه تجـاه مـن ينتسبون إليك و لا تعرفهم ، و هو أكثر مما تشعر به تجـاه القـوم الـذين يسكنون فـي الـبلاد التـي تسكن فيها ، وقد ينعدم الود لمن هم ليسوا ببلادك حتـى و لو كانوا من جنسك .
أليس ما أقوله صحيح ؟ هل فهمت ؟ .

أبدى حماري بحركة رأسه علامة دلت أنه فهم ، و عساه يكون قد فهم .

ثم قال :
أو هذا طبيعي ، الذي قلت عن الود ؟

قلت :
نعم إنه طبيعي في إطار ما أعطينا من غريزة ، و في إطار العقل المميِّز بـالفطرة ، و لكنه ليس في إطار الفكر الراقي .

قال حماري :
و ما معنى الفكر الراقي ؟ و ما علاقته بالود و العلاقات ؟

قلت لحماري و قد إبتهجت لإهتمامه :
الفكر الراقي هو ذلك الرأي الذي إن إتبعته نقلك من عالم الحمير إلى عالم العقلاء ، و من عالم السفهاء إلى عالم الحكماء .

و إن لذلك علاقة مهمة بالرابطة القومية ، فإن ما يقابل الود عادة ، هو عدم الـود ، أي البغض و الكره قلّ أو كثر ، أو الموقف بين هذا و ذاك ، أي لا ودّ و لا عدمه .

نقيض الود هذا هو ما تشعر به تجاه البعيد فالأقرب فالأقرب ، حتى تجده ينعدم عند أقرب الأقرباء من قومك كإبنك مثلاً ، أي أنك إما أن تكره الأقوام الأخرى ، أو أنك لا تكترث لأي مصيبة تصيبهم ، إبتداءً بالبعيد و إنتهاءً بالقريب .

و يزداد نقيض الود هذا عند تصادم المصالح ، بل و قد ينقلب إلى عداء مستشرس محكم ، و قد تتفاقم فيه نيران البغض و الغل عنده ، و تحتجب عند تصادم المصالح كل ميول التسامح و الحلم و الرحمة .

و ليس تصادم المصالح بالشيء الغريب أو النادر ، بل هو من السنن التي تقترن عادة بكل الأعمال اليومية ، فالخلق كلهم يسعون لتحقيق مصالحهم من خلال بعضهم أو من الطبيعة ، معنى ذلك أن الود قد يُفتقد بين كل الساعين لتحقيق مصالحهم و خاصة بين من ليسوا بأقرباء ، وبين من وجدوا و بين لم يجدوا .

فتظهر حينها كل ميول التحاسد و التباغض و التنافس في صورة فعلية متمثلة في التنازع على المصالح و الغش و الخداع ، و تطفيف الكيل ، و بخس الناس بعضهم بعضاً ، أو إلى الإقتتال و ما يتبعه .

و هكذا تكون الرابطة القومية ،، فهي نعمة على أبنائك المقربين ، و نقمة على باقي الناس ، بالرغم من أنها غريزية ، يقويها العقل عند الإنسان .

قلت لحماري متابعاً لحديثي :

و أما ما علاقة الفكر الراقي بهذا كله ، فالفكر الراقي هو القادر على أن يجعل الإنسان يقفز و يتجاوز كل هذه الإعتبارات الغريزية ، و نتائجها الكوارثية ، فينظم

العلاقات ، ثم يوجد عرفاً يتعارف عليه الناس ، فيجنبهم ذلك كله و يؤدي إلى إرضائهم و تراضيهم ، ثم إسعادهم بعيداً عن التنافس و التحاسد و التباغض .

قلت لحماري و كأن نشوة الفرح أخذتني أن وجدت من يصغي إلي من الحمير :
ها ، هل فهمت الآن ؟

قال حماري :
و لكن لماذا أطلت الإجابة ؟ لقد سهوت عنك و أنت تتحدث ، و إنتقلت بتفكيري إلى عالم آخر تماماً ، و لكن لم تقل لي ما علاقة ذلك كله بالفكر الراقي ؟

قلت مندهشاً :
لقد شرحت لك ذلك للتو .

قال حماري :
آخ ،، صحيح ، و لكن ألا تجد أن المصلحة و تبادلها قد تقرب بين الناس ؟

**

أصبت بدهشة أذهلتني و بشيء من الغم و الغضب ، و أحبطت لضياع جهدي و أنا أتحدث إليه مجتهداً ، و منتقياً أرقى الألفاظ و أحسن الأفكار ، مجتهداً إستخدام أسهل الجمل و أنظمها ، و ها أنا أجده سارحاً بتفكيره إلى ما لا أعلم ، و ضارباً بي عرض الحائط .

ثم لا أجده متابعاً لقولي ، بل و يتابعني بطرح الأسئلة التي قد لا يفهم إجابتها ، ثم أرجع مرة أخرى أتحدث جاهداً ، مخلصاً لما أقول فيسرح بتفكيره مرة أخرى ، و

كأني به كالذي يقوم بتشغيل موتوراً بضغطة زر واحدة ، ثم يتركه يعمل ، و يذهب هو لينام .

ماذا تراني فاعل يا ترى ؟

هل أدعه ، و أقول له أنت حمار ، و لا يجدي في الحمار حديث ذو نفع ، أم أهمله كلياً ؟ أم هل أجيبه ببعض الأفكار المتناثرة المقتضبة التي لا تتطلب أدنى جهد ، كالذي يريد فقط أن يتخلص من سائليه ، كالذي يرمي ببعض الفلسات باخسة القيمة لمن يستجديه أثناء نزهة في أحد الحدائق العامة ؟

أم أصبر على مصيبتي معه ، كون أني أخذت على نفسي تعليمه ، و إصلاح شأنه ، و الرقي به من عالم الحمير إلى عالم العقلاء ؟ .

يا له من بلاء يستوجب صبر الصابرين و بلاء المجاهدين ، و عزيمة الشاعر الذي قال :
سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري ،،،، إلى آخر الأبيات العنيدة .

إذن سأشحذ همتي و أسايره و أجيب عن كل ما يسألني عنه ، علّه يلتقط بعضاً مما أعلمه ، فالذي يخرج من البحر و لم يأخذ منه شيئاً ، يكون قد أصابه شيء من البلل .

قلت لحماري كاتماً غيظاً كنت قد أوشكت أن أبديه :
نعم ،، هذا حقيقي ، إن المصالح قد تقرب بين الناس ، و لكن ما أن تنعدم ، ينعدم معها التقارب بينهم ، و إذا ما تقارب الناس لإجلها ثم لم يكن هناك بينهم نظام ثابت

يتعارفون عليه و يخلصون له ، مع إشتراط صحته ، فسيكون تقاربهم ذلك وابلاً عليهم من التصادم و الأحقاد ، يتبعه تنافر في إتجاهات معاكسة ، فيكون الشر بعينه .

قال :

هل الفكر الراقي هو هذا النظام الذي تقول .

قلت :

إن النظام هو نتاج الفكر الراقي الذي أدعو إليه .

قال :

و إذا لم يوجد هذا الفكر الراقي و هذا النظام ، فما هي نتيجة ذلك ؟ ، أنا أجد أن يعيش الناس بدون كل هذه الأفكار المعقدة التي تتحدث عنها ، ذلك أحسن لهم ، و يكونون بذلك أحراراً .

قلت متابعاً لحديثه :

و يبقون بذلك حميراً ؟ .

قال حماري :

كل حمار حر في نفسه ، و ما يصنع بها .

**

قلت في نفسي : يا إلهي ،، سأضطر لإعادة كل ما قلته له عشرات المرات حتى يعي ، أخاف أن يكون أسلوبي غير صحيح ، فيبقى هو السائل و أنا المجيب .

و العيب في هذا أني أكون أنا الذي يُشغل ذهنه و فكره ، و هو ينعم ببسطة المتلقي الذي إن أراد أخذ ، و إن أراد رد ، دون عناء و أدنى جهد .

إذن فلأتّخذ لنفسي معه أسلوباً آخر في الحديث ، فأطرح عليه تساؤلات تشغل دماغه ، و تجعله يفكر و يستنتج هو بنفسه الصواب من الخطأ ، و الخير من الشر .

و بذا فإني سأستفزه كذلك للحديث ، حتى يتخبط يميناً و شمالاً في متاهات الألفاظ ، ليتمكن من التعبير بها عن نفسه ، حتى يبدأ يحسن تعلم بعض الألفاظ ، فأكون بفعلي هذا قد أصبت ثلاثة أهداف بضربة واحدة ، التفكير ، الجرأة ، الفهم .

و لكن لن يكون ذلك سهلاً ما لم يسخّر كلانا طاقته و جهده للصبر على الآخر ، وعلى هذا الفكر ، و على هذه الكيفية من الإستفزاز ، و عسى أن يكون هو على قدر العضلات التي يحملها في جسده و أطرافه ، و سأرى .

أجبت عليه سؤاله بسؤال :

و ما ظنك أنت بالنتائج التي تترتب عادة على عدم وجود الفكر الراقي المنظم لحياة الناس و مصالحهم التي تنطلق من غرائز الإنسان و حاجاته العضوية .

**

طرق حماري ملياً بالسكوت و كأني ضربته بمرزبة على رأسه ، و طفقتا حدقتا عينيه تتردد سريعاً يمنة و يسرة كأنهما تبحثان عن ملجأ لصاحبها تلجأ إليه وقت العسرة .

فتلكأ و تأهأه قليلاً ثم قال :

ماذا تقصد ؟

قلت :

أقصد ما قلته لك .

قال :

أو هل تعيد عليّ سؤالك ؟

**

فأعدت عليه السؤال مرتين ، ثم أعدت إليه أفهمه معنى الفكر الراقي ، و معنى غريزة البقاء و معنى الرابطة القومية ، و معنى إرتباط المصالح بذلك كله ، و قد أنصت إليّ هذه المرة جيداً ، عله يخرج من هذا المأزق الذي دفعته إليه .

و الآن قد تبينت صحة ظني أنه كان يجيبني بنعم ، و أنه يفهم ما أقول ، و هو في الحقيقة لم يكن يتابع يتابع حديثي ، أو يتابع و لكن لا يفهم .

قلت لحماري :

ها ، و ما تظن أثر غياب الفكر الراقي عن الحياة ؟

**

و بعد ساعات مجهدة أدركت أني بدأت أنجح في فكرتي ، حيث بدأ حماري يفكر ، و يستخدم الألفاظ الصحيحة بعضها ، و أعينه على البعض الآخر منها ، حتى خلصت معه إلى جواب لسؤالي الذي كدت أشرع أجيبه عليه ، و لكن النتيجة كانت كغيرها

من إجاباتي السابقة بعدم الفهم أو النسيان ، أو الخلاص إلى جدل يوصد به الباب في وجهي بقوله : أولسنا حمير يا سيدي ؟

و لكني أرى أني قد نجحت بفكرة إشراكه معي بالجدال للوصول إلى الأفكار ، بالرغم من علامات القرف و السأم و الكدر و الإجهاد التي لا حظتها قد إنتابته . فهو في واقعه لا يريد أن يفهم ، و قد أوقعته في شرك لم يستطع الفكاك منه .

و أظن أن هذه التجربة الأولى في حياته التي يمر بها ، و بالرغم أنه قد علم أن هناك فكراً راقياً ، به تنتظم حياة الناس ، و به يجتنبون كوارث ما تمليه عليه شهواتهم ، و يستطيعون العيش به آمنين ، و لكنه لا يدري أي فكر ذلك الذي عنده القدرة على هذا التنظيم الهائل ، لأعقد الأمور و أكثرها تعجيزاً لكل الحكماء و المفكرين منذ نشأة البشرية حتى يومنا هذا .

و هو لا يؤمن في الوقت ذاته بأن ذلك ممكناً ، و ليس خيالاً ، فهو لم ير و لم يدرك يوماً واقعاً كان فيه الخير و العدل و الحب و العزة قد سادت الناس أجميعن .

و هو لا يصدق أن هناك شيئاً إسمه الإيثار و التضحية و الشهامة و الكرم و الشجاعة ، أو عزة النفس و إغاثة الملهوف ، أو نصرة الضعيف و رعاية المسكين و الفقير ، أو إيواء إبن السبيل ، أو أن هناك أخوة أو صداقة لغير مصلحة دنيوية .

بل هو لم يعرف هذه المسميات أو يكاد لا يعرفها ، لأنه لم يعرف قط و لم يتعلم و لم يحس واقعها ، فهي عنده من ضرب الخيال و الفلسفة ، بل هو لا يعرف إلا هذا الواقع الأليم أنه حمار ، و حتمية أنه سيبقى حماراً ، و أن الأنفع و الأسلم له و لرقبته و بطنه و أبنائه أن يكون و يبقى حماراً .

و هو لا يعرف إلا الصراع على البقاء ، بكل ما أوتي من مكر و حيلة و قوة ، أو بسلاح الخداع و الغش و النصب و الإحتيال والنفاق و التذلل و المداهنة أو الإغتصاب .

بل هو و قومه من الحمير لا يذمون من يصل إلى غاياته بإحدى تلك السبل أو بغيرها ، بل هو في نظرهم الذكي الفطن (أو كما يسمونه : الشاطر) ، و هو الجدير بالمدح و الإحترام .

و هو لا يعرف إلا أن أقوامه من الحمير في كل أرض و قطر يكرهون بعضهم البعض ، و منقسمين إلى شعوب و قبائل مقسمة إلى أفخاذ مختلفة ، الأفخاذ منقسمين إلى عوائل و أسر ، و هؤلاء الأخيرين كذلك يتنازعون فيما بينهم السيادة على بعضهم على أساس العرق و النسب ، حتى لقد وصل التنازع فيما بينهم و التنافس إلى داخل الأسرة الواحدة ، مفعوم بالحسد و البغضاء و الشحناء .

و حماري لا يعرف غير هذا الواقع ، و لذلك فهو يكره الجدال إبتداء لأنه يعتبره عقيماً لا يأتي بخير ، كالذي يفني شبابه في عد ذرات الرمل .

و لكن حماري يظن أن هذا الواقع هو حال طبيعي ، لا فكاك منه مطلقاً ، و أنه لا سبيل بحال من الأحوال إلا إليه .

و على الرغم من النتيجة المُرضية التي وصلت إليها مع حماري ، لكني بتّ خائفاً من نفوره مني و من الحديث إليّ المرة القادمة ، فهو لا يكره التفكير فقط ، بل و ليست لديه القدرة على التفكير البديهي ، أي أنه لا يستطيع أن يربط المعلومات التي

في ذهنه ببعضها ، و بالمعلومات التي ينقلها إلى دماغه ، إلا بجهد جهيد ، و إذا ما إستطاع ربط بعضها ببعض فإنه يخفق بالخروج منها بنتيجة ، أي بإستنتاج يستند على تلك المعلومات .

فمن الطبيعي مثلاً أن يستنتج العاقل التفكك الإجتماعي و الأسري من خلال سيادة الرابطة القومية أو الرابطة المصلحية أو كلاهما بين الناس ، و من الطبيعي يذهب إلى حقيقة لزوم إيجاد نظام ينظم حياة الناس ، إذا ما أشغل فكره قليلاً ، بدلاً من المثول إلى فوضوية الغرائز و ما تنتجه للجاهلين من سوء إنضباط ، و إلى صراعات مخيفة .

و لكن الحمير كما بدا لي من حماري أنهم يفتقدون تلك البديهية في التفكير ، فقد أوشك حماري بعد ذلك الجدال الطويل أن يقترح عليّ أن نعمل على كبت تلك الغرائز أو طمسها أو نزعها من المخلوقات بالحلول القمعية التي لا يعرف سواها ، بدلا من أن يفكر بإيجاد الفكر الراقي المنظم لتلك الغرائز ، و الميول الناتجة عنها .

هذا ما إستقرأته من حديثه و طريقة تفكيره ، فهو لم يرقَ لكيفية من التفكير من شأنها التغيير أو حتى الإصلاح أو ما شابههما .

إن الحمير و منهم حماري يجدون صعوبة بالغة في النقاش الفكري ، لأنهم أساساً لم يعرفوا ذلك قط من قبل و لم يتعودوا عليه ، عدا أنهم ليس لديهم من الأساس أفكار تعينهم على مجاراة الأحاديث الفكرية .

غير مصيبة الإنهزام الفكري الذي يعانون منه ، أي أنهم يقولون بإستحالة تغيير الواقع ، و غير ذلك كثير .

ثم إنهم إذا لم يكن ما يفعلونه مرتبطاً بمصلحة مادية ، فلا قيمة لذلك عندهم .

****

الفصل الثالث

حماري
و
القراءة

قلت لحماري يوماً :

مالي أدعوك إلى القراءة فتأبى ، و قد تعلمت القراءة و الكتابة ؟

قال حماري :

و من قال لك أني تعلمتها حتى أقرأ ، فأجع رأسي و أضيع وقتي ؟

قلت :

و لم إذن تعلمتها ؟

قال :

تعلمتها حتى أحصل على شهادة علمية ، أقدر بها أن أؤمن بها عملاً أقتات من خلاله ، و أتزوج .

قلت :

و لكن الأعمال كثيرة ، التي لا تتطلب القراءة و الكتابة ، أو شهادة دراسية .

قال :

هذا ما جناه عليّ والدي .

قلت :

إذن كان أبوك يريدك أن تصبح عاقلاً ، فدفعك إلى المدرسة ، على أمل ذلك .

قال :

لا يا سيدي ، لقد كان أبي حماراً مثلي ، و لم يرد إلا أن أحمل شهادة دراسية أتفاخر بها ، و يتفاخر هو بي و بها بين باقي الحمير .

قلت لحماري :

و ما أدراك أن أباك كان يريدك أن تصبح عاقلاً ، حين دفعك للدراسة ؟

قال :

لو كان ذلك نافعاً لتغيير الحمير إلى عقلاء لنفعت أبي شهادته الدراسية العليا ، و لكنه بقي حماراً .

**

فكرت في نفسي مندهشاً ،، ما هذا ؟ إن حماري هذا يحيرني كثيراً ، فتخلفه الفكري يصيبني بإحباط قاتل ، و يدهشني من جانب آخر ببساطة إستنتاجاته ، هل هذا هو ما يسمونه التفكير الفطري الذي لا يحتاج إلى أفكار كثيرة أخرى تبرزه ؟

أم هذه إجابة مُعدة على لسان حماري ، زورها في نفسه ، يسردها لكل من جادله في مسألة القراءة أو الدراسة ؟

قلت لحماري مشجعاً إياه لصحة فكرته و موافقتي له عليها :

إن هذا صحيح أن مجرد تخزين المعلومات في الرأس لا يغير حال الحمير إلى عقلاء ، أو العلماء إلى سياسيين ، أو الفقهاء إلى قضاة ، و إلا سبقنا إلى العقل و الحكمة الكمبيوتر الذي أداة صنعه من الجماد ، و ما يحدث في المدارس و الجامعات إنما هو مجرد تخزين معلومات في عقول الدارسين ، لا تستخدم للعلم و لا لتطبيقها في الواقع ، يتبع هذا التخزين ، إختبار دوري لقدرة عقل الدارس على التخزين ، و قوة

الإستذكار للمعلومات ، فليست هي التي مغيرة سلوكاً ، و لا مقررة عقيدة ، أو موصلة إلى غاية نهضوية فكرية .
إني أوافقك حماري على حسن ما وصفت .

قال حماري :
عدت لا أفهم ما تقول ، و لكن لماذا تريدني أن أقرأ ، و عندي الحمد لله ما يكفيني من المال ، و الأكل و الشرب و المسكن ، و زوجة و أبناء ؟ ،، ما يغنيني عن القراءة .

قلت لحماري و هو كما أرى لا يزال في ضلاله الفكري ، و تخلفه بالرغم مما أعلمه إياه :

إن القراءة ليس مجرد عمل يتقلده العلماء ، بل إن من الحمير من يقرأ أكثر من العقلاء ، و لكنهم يقرأون ما يضرهم و لا ينفعهم ، بل قد يعزز مقروؤهم المحافظة عليهم حميراً ، أو يزيدهم حميرة .

قال :
و كيف ذلك ؟

**

مازال حماري يستخدم نفس الأسلوب في طرح سؤال بسيط ، فأقوم فأجهد بتفصيل جوابه ، ثم لا يفهم ،، و لكن هذه المرة فلا بأس .

فأخذت أشرح له تارة ، و أستثيره تارة أخرى كما فعلت من قبل أرد عليه أسئلته ، عله يفكر قليلاً ، و كأني به ينزعج مرة و يأنس لذلك مرة أخرى ، حتى أفهمته أن القراءة ترتبط بثلاث مسائل مهمة ، إذا غابت إحداها فقدت القراءة أهميتها ، و فقدت متعتها ، و لم تعد على صاحبها إلا بالضرر ، كالذي يحك جلده بسكين حادة .

أي أن القراءة سلاح ذو حدين ، فإذا لم يقم القاريء بها إنطلاقاً من مبدأ يحمله فهو لن يُسرّ لفعلها ، لأن المبدأ هو الذي يحدد الغاية التي يسعى للوصول إليها ، فلو كانت القراءة هي التي ستوصله إلى غايته ، أصبح أمرها محموداً و مطلوباً عنده ، إنطلاقاً من ضروريات مبدئه .

و الغاية دائماً تقوم بتحقيق قيمة معينة أو عدة قيم ، فهي قد تحقق قيمة مادية من خلال القراءة ، كتجاوز إختبار يؤهل لوظيفة في تحقيق مصدر مالي يعتاش به ، فيقف عند هذا الحد من القراءة .

و قد يحقق بالقراءة قيمة مادية و قيمة إنسانية معاً ، حين يسعى للحصول على وظيفة فيها خدمة لجنس الإنسان كالتمريض أو الطب أو الشرطة أو خدمة الحاج لبيت الله ، وغيرها ، فيحقق بذلك كسباً مادياً إلى جانب المعونة الإنسانية (إن أخلص القيام بها).

و قد يحقق كل القيم في أداء عمل واحد من خلال القراءة و التعلم ، القيمة المادية و الإنسانية و الروحية ، فالطبيب أو الشرطي الذي يخلص في عمله و يعامل الناس بخلق حسن ، كل ذلك إنطلاقاً من الإرادة لنيل رضوان الله ، متبعاً في ذلك أوامر الله و مجتنباً نواهيه ، يكون قد حقق كل القيم في فعل واحد ، و في آن واحد .

و بالطبع فإن هذه الغاية لتحقيق إحدى أو بعض أو كل هذه القيم يحددها المبدأ الذي ينطلق منه الإنسان ، فالذي ينطلق من مبدأ المصلحة المجردة ، تقف قراءته عند تحقيق مصلحته ، فلا يقرأ بعدها ، بل و تحدد بدورها المادة المقروءة .

و الذي ينطلق من مبدأ المصلحة و شيء من العاطفة لبني الإنسان ، تقف قراءته كذلك عند تحقيق هذه المصلحة ، و تحدد بدورها المادة المقروءة .

و الذي ينطلق من مبدأ فكري كمبدأ الإسلام ، أو الشيوعية ، أو الرأسمالية ، ثم يسعى لتحقيق هذا المبدأ في واقع الحياة ، أو يسعى للمحافظة على مبدئه أو على نشره ، فيكون عمله بذلك فكرياً سياسياً ، ثم لا تقف قراءته عند حد ما ، بل يحدد مبدؤه الذي يؤمن به و الغاية التي يسعى لأجلها المادة المقروءة و كمها و كيفيتها .

و هناك من يقرأ بلا مبدأ و لا غاية ، فيقرأ ما هب و دب من الغث و السمين و السخيف و التافه ، فيتقاذف عقله محتوى ما يقرأ ، كالأمواج التي تتقاذف سفينة هالكة ، فيصبح لا تجد له رأياً و لا فكراً محدداً ، و يبقى بعدها لا ينتمي لا إلى حمير منحطين و لا إلى حمير مثقفين و لا إلى العقلاء .

بالطبع لم أكن أحدث حماري بهذا الأسلوب ، و بهذه الألفاظ ، و بطريقة الطرح الفكري هذا ، و لو فعلت ، لأصابته صدمة يقسم بعدها أن لا يحدثني أبداً .

أو أنه يفعل كما سجى عليه الحمير ، بأن يذهب بين الحمير يشير إلى عبقريتي ، فيقدسني هو و غيره لمجرد أني أقول كلاماً لا يفقهونه ، و أحمل فكراً لا يعونه ، حتى لو كان خاطئاً . و لكني حاولت أن أسدد و أقارب ، علّه يفهم شيئاً يعينني عليه فيما بعد .

قلت لحماري :

وما رأيك فيما قلته لك بشأن القراءة ؟ .

قال حماري :

في الحقيقة لم أفهم كل ما قلت ، و لكني أشعر أن كل ما قلته صحيح ، و إنك فيه لعلى حق ، و لكننا شعب الحمير لا نحب القراءة لأي غاية ، و لو أحببناها لقرأنا و تعلمنا بالرغم من أننا نحب أن نكون من الشخصيات الراقية ، و ذوي الوظائف الكبيرة ، خاصة الإدارية منها أو التجارية المتفوقة .

- يا إلهي ، لم يفهمني حماري بعد ، فهو يظن أني أدعوه للقراءة و العلم حتى يصبح من ذوي الشخصيات الحميرية الراقية كما يسميها ، أو التجارية المتفوقة .

قلت لحماري :

دعك الأن من التفكير بالمصالح المادية ، فأنا لا أدعوك و غيرك من الحمير لأن ينتقلوا من حمير في أعمال بسيطة إلى حمير في مراكز راقية ، تجارية كانت أم إدارية أو إلى ما شابههما .

قال :

ها ،، و ماذا إذن ؟

قلت و قد بدأت أشك في قدرتي على نقل أفكاري و طريقتي التربوية :

أريد أن أنقل الحمير من عالمهم إلى عالم العقلاء ، أفهمت ؟

قال حماري :

أوهل تستطيع ذلك إذا ما بدأوا يقرؤون ؟ .

قلت :

بالطبع لا ،، و لكن القراءة تعين على ذلك بشروط .

قال :

و ما هي تلك الشروط ؟ .

قلت لحماري :

أولاً : أن يكون ما يقرأونه صحيحاً .

و ثانياً : أن يأخذوا على أنفسهم تغيير أنفسهم حسب ما يقرأونه من فكر صحيح .

قال حماري :

و ما يدريهم ما هو الصحيح ؟ و ما هو الخطأ ؟ .

**

وقفت قليلاً ، قائلاً لنفسي ، هاهو حماري يزل لسانه بسؤال لا يخطر ببال كثير من العقلاء ، ناهيك عن الحمير ، فالصراع العالمي كله الفكري و السياسي يقف عند هذه المسألة .

فالحمير البلغاء الأقوياء و المتسلطين عندهم من الحنكة و الفلسفة و النفير ما إستطاعوا به إقناع الحمير الضعفاء و السفهاء بفكر و نظام حميري ، يبقيهم حميراً آبدين ، و يُبقي الحليمين منهم محتارين في مسألة ما هو الصواب ، و ما هو الخطأ ، دون أدنى قوة أو إجبار .

يا إلهي كيف علي أن أفهم حماري مسألة معقدة كهذه المسألة ، التي عجز عن إجابتها فلاسفة كثيرون ، و أجابوا عليها بإجابات ملونة و مختلفة ، و غير مفهومة ، و هي مسألة شبيهة بمسألة هل الإنسان مسيرٌ أم مخيرٌ .

سأسرّها في نفسي و أتروى قليلاً و لأعطيه ما يستطيع حمله من فكر ، فبالتأكيد هو لم يقصد ما سأل .

قلت لحماري :

إن عند إعتناق الإنسان مبدءًا معيناً فهذا المبدأ .....

قاطعني قائلاً :

و ما معنى مبدأ ؟

- قلت لحماري و أنا أحافظ على وقاري أن لا أغضب ، لأنه أبدى لي من قبل أنه يفهم ما أقول عندما ذكرت المبدأ ، و لكن حسناً أنه يسألني الآن عنه و عن معناه ، بدلاً من أن يستمر في مغالطة نفسه .

فقلت :

المبدأ هو ما ذكرته لك من قبل ، أنه فكر ينبثق عنه نظام .

قال حماري :

و ما معنى فكر ، و ما معنى نظام ، و ماذا يعني ينبثق ؟

* * *

الفصل الرابع

حياة الحمير الكريمة

أدركت مجدداً من سؤال حماري أني لم أتعرف على عالم الحمير جيداً بما يكفي بعد ، و لم أتعرف على مستوى التخلف الذي وصلوا إليه ، و لذلك فأنا حقيقة قد لا أحدثهم على قدر عقولهم ، فلأكن حليماً و صبوراً ، و علي أن لا أنسى أن عالم الحمير في حاجة إلى بناء من نقطة الصفر ، حتى يستطيعوا أن يلموا بكل ما يقال لهم ، و حتى يتبنوا ما يحمل إليهم بشكل منتظم ، و شيئاً فشيئاً ، و إلا كنت كالذي يحمّل طفلاً أثقالاً لا يطيقها إلا الرجل .

أظن قبل أن أبدأ بإفهامه ماهية المبدأ ، و ضرورته اللازمة لنقل الحمير إلى عقلاء ، علي أن أقنعه أنه في واقعه حمار ، و أقنعه أن كونه حماراً هو أمر خبيث و عظيم .

و لن يتم لي ما أريد إذا لم أوضح و أفصل له واقع الحمير تفصيلاً دقيقاً ، و لقد أبليت في هذا ، و لكن يجدر بي ربما أن أوضح له و أفصل تفصيلا دقيقاً واقع العقلاء ، و الحياة الراقية السعيدة التي أدعوه لها ، و يسعى لإيجادها العقلاء .

لذلك لا يمكن أن أدعوه لأن يصبح عاقلاً ، لحياة في الحقيقة لا يعرف واقعها ، و لم يرها و لم يدر ما حقيقتها ،، فقد يكون مرتضياً بحياة الحمير و بكونه حماراً لأنهم لم يعرفوا عالماً غيره يصور لهم حقيقة واقعهم عن طريق المقارنة و مشاهدة الفروقات .

و لقد وقع كثير من الحمير في شَرَك عظيم ، أنهم قارنوا عالمهم بعوالم حمير آخرين ، إرتقوا عنهم كثيراً أو قليلاً ، أو بمن نهضوا عنهم بمراحل عديدة في مجالات كثيرة كالإدارة و الصناعة و التقنية و الرياضة والعمران و النظافة ، و ظنوا أن غيرهم من هؤلاء الحمير الصفر قد إرتقوا بهذه إلى عقلاء ، فجهزوا بذلك الظن جهازهم ، و

أعدوا عدتهم ، ساعين إلى أن ينحوا منحى الحمير الصفر ، و يغيروا عالم الحمير السمر إلى عالم كعالم الحمير الصفر ، بصفتهم هم العقلاء ، و أن حياتهم هي الحياة الراقية .

و هؤلاء الحمير الذين أسموا أنفسهم بالنهضويين ، قاموا بدلاً من أن يغيروا مظاهر الحياة المدنية التي أعجبتهم من صناعة و نظام مروري جيد و نظافة إلى بلادهم (بلاد الحمير السمر) ، ذهبوا فغيروا مبدأهم كاملاً ، و قاموا يدعون إلى مبدأ الحمير الصفر ، ظناً منهم أن مبدأ هؤلاء هو الذي خلق مظاهر تلك الحياة المدنية الراقية .

و لم ينتبهوا أن هذه الوسائل المادية بالإمكان نقلها ، و القيام بها بكيفية تتناسب مع مبدئهم ، أو لا تتعارض معه ، دون أن يكونوا في حاجة لتغييره ، أو تزويره .

و لما علم ذلك عنهم الحمير الصفر ، وجدوا في ذلك فرصة ثمينة لترويج مبدئهم لكل الحمير الآخرين ، فقاموا ساخرين يعرضون عليهم فنون صناعاتهم و مظاهر مدنيتهم ، و يقولون لهم أنظروا ماذا صنع مبدؤنا ، فقام الآخرون (الحمير السمر) فأعتنقوا مبدأ الحمير الصفر ، فزادوهم خبالاً على خبالهم .

و لأعد إلى سؤال حماري عن المبدأ ، ولا أظنه سيفهمني الآن لو وضحت له حقيقة المبدأ .

فقلت لحماري :

و لماذا تريد أن تعرف معنى الفكر و معنى النظام و معنى المبدأ ؟

قال حماري :

حتى أعرف كيف سأصبح من العقلاء عن طريق هذا المبدأ ، و عن طريق القراءة التي تدعيها .

قلت متلهفاً مسروراً في داخلي :

أو تود حقاً أن تصبح من العقلاء ؟

قال :

نعم ، إن كان ذلك سيحقق لي الثراء و المنصب الراقي و الخير الكثير الذي تتحدث عنه .

بالرغم من أني لا أراكم معشر العقلاء إلا أقل الناس مالاً و جاهاً .

قلت لحماري :

أولا تدعك من التفكير المادي الصرف هذا ؟ فإنه يصرفك عن خير كثير .

قال :

نعم ، و أنت يا سيدي ألا تدعك من إضاعة جهدك و وقتك ؟ .

قلت و بي شيء من الغضب :

إذن فأسمعني جيداً ، لأفهمك ماذا أريد من وراء كل ما أحدثك به .

قال :

حسناً ، هات فأسمِعني .

قلت لحماري :

إن هناك نوعين من الحياة ، حياة كريمة ، و حياة دنيئة ، و إن الحياة لكريمة هي التي يعيش أهلها كرماء أعزاء ، فلا يكون بينهم الفقير و المسكين ، و المظلوم و المحروم ، و يكونون كلهم متآخين متحابين في الرخاء و الشدة و في كل الأمكان و الأزمان .

إن ذلك ليدفعهم لنهضة تسيدهم على العالم بالعلم و الأدب و الخلق ، بل و ليسود هذا العلم و العدل و الأدب و الخلق الطيب و الحب و العزة و الحياة الكريمة التي يدعو إليها العقلاء العالم أجمع ، و لذلك فهم عقلاء .

قال حماري :
و لأجل ذلك فقط هم عقلاء ؟؟؟

قلت لحماري :
إذا آمنوا هم بذلك و عملوا لأجله و بإرادة مخلصة ، يصبحون بذلك عقلاء .

و أما الحياة الدنيئة المنخفضة ، فهي الحياة التي يعيش كل فرد من أهلها لنفسه فقط ، فيسعى كل واحد منهم لحيازة كل شيء و بأي كيفية ، لا يرقبون في ذلك عزة عزيز و لا ذل ذليل ، و لا فقر فقير أو ظلم مظلوم ، فيصبح فيهم الفقير و المظلوم و المحروم و المعدوم ، و العزيز يصبح ذليلاً و الذليل يصبح عزيزاً ، حتى ينعدم بينهم الحب و الخلق الطيب و الأدب و الرحمة و العدل .

و هذه الحياة التي لا يرضاها العقلاء ، و هي التي إرتضاها الحمير فقط ، قويهم و ضعيفهم ، و قد حدثتك عن كثير من أحوالها و ظروفها .

قال حماري :

آخ ،، فهمت الآن لماذا يُدخل العقلاء أنوفهم فيما يعنيهم و فيما لا يعنيهم ، يريدون أن ينتزعوا الأموال من أيدي الأغنياء ، و يعطوها للفقراء حسب زعمهم ، ولا أراهم يفعلون ذلك إلا ليصبحوا هم قبل غيرهم أصحاب السلطان و المال الكثير .

قلت لحماري :

يا حماري ،، أنا لم أدعُ للعدل و المساواة في المال فقط ، بل إلى أمور عديدة لا علاقة لها بالمال بتاتاً .

بل و إن دعوتي لها تكلفني جهداً و مالاً عظيماً ، و قد أتعرض لمصاعب و متاعب شتى في دعوتي لها .

قال :

لماذا إذن تفعل ؟

قلت :

المبدأ ، المبدأ هو الذي يدفعني لأن أدعو لها .

قال :

إذن فحدثني عن المبدأ الذي تتحدث عنه ، و الذي يدعوك لإيجاد هذه الحياة الكريمة الخيالية التي تدعي .

قلت :

عن أي مبدأ تتحدث ؟ مبدئي أم مبدئك ؟

قال حماري :

أو هل عندي مبدأ ؟

قلت :

نعم

قال :

حدثني بالله عليك عنه ، فقد أفرحتي .

قلت لحماري :

إن ما تحدثنا عنه طويلاً ، هو ذلك المبدأ الذي عندك و الذي ، و الذي جعلك و قومك حميراً ، و أبقاكم كذلك حميراً ، و ستبقون به إذا شاء الله أبداً حميراً .

قلت :

إن الشيء الذي تؤمنون به هو الذي يقرر سلوككم في الحياة ، في علاقاتكم مع غيركم من أبنائكم و أزواجكم و أقاربكم ، و البعيدين الأجانب ، و مع غيركم من الأمم .

و كذلك في علاقاتكم مع أنفسكم ، في أخلاقكم و ملبسكم و مشربكم و مسكنكم ، و في علاقتكم بخالقكم ، هذا يعني مبدؤكم .

قال :

ماذا ؟

الشيء الذي نؤمن به ، أم سلوكنا هو المبدأ ؟

قلت لحماري :

بل كلاهما ، لأنهما لا يمكن لهما أن ينفصلا عن بعضهما ، فالإنسان لا يسلك سلوكاً بكيفية و صورة معينة إلا و قد كانت له مفاهيم معينة عن الحياة إنطلق منها بذلك السلوك ، و هذه المفاهيم هي التي يقررها ذلك الشيء الذي تؤمن به ، فيكون سلوكك دليل على المبدأ الذي تحمل .

قال :

هلا أفهمتني أكثر ؟ !

قلت :

سأعطيك من الأمثلة ما يكفي للفهم ، و لكن عليك متابعتي جيداً .

فمثلاً عندما أراك تعود مريضاً فهذا سلوك ، أي عمل تقوم به ، فلو سألتك عن سبب زيارتك له ، فقد تجيبني بأنك تعوده رداً للجميل ، فهو قد عادك عندما كنت مريضاً ، و قد تجيبني بأن ذلك واجب شرعي ، و لا تفعله إلا لإرضاء الله سبحانه و تعالى .

وقد أراك تحسن التعامل مع بعض الناس ، فإن سألتك عن سبب تكلفك حسن معاملتهم ، فقد تجيبني بأن هؤلاء رجال أعمال أغنياء ، و تبادل المصالح تتطلب تلك المعاملة ، و قد تجيبني بشكل آخر فتقول أن هذا خلقٌ حسن ، و من المندوبات معاملة الناس جميعاً به .

و قد أراك تقوم على مصلحة بعضهم تؤديها إليهم كمساعدتهم في بعض أمور الدنيا ، وتجد أن لهذا ضرورة لتبادل المصالح معهم ، فتكون خدمة تقابلها خدمة أخرى عند الحاجة ، و قد تجيبني بشكل آخر فتقول أن تلك الخدمة من المندوبات الشرعية .

و قد أراك تسلك سلوك الغش و الكذب في تجارتك أو عملك ، فإن سألتك عن سبب فعلك ذلك فقد تجيبني بأن ذلك الفعل لا بد منه لتحقيق البيع و الربح و لإتمام العمل على أكمل وجه ، أو تكون قد إتخذت سلوك الأمانة ، الذي تراه أنه واجب شرعي و خلافه إنما هو من المحرمات الشرعية .

و قد أراك تشرب الخمر أو تتخذ خادنات لنفسك ، وقد تجيبني إن سألتك بأن ذلك متعة جسدية رائعة . و قد تمتنع عن ذلك الفعل لأنك تجده محرماً ، و هو زنا في حقيقته بالرغم من المتعة التي تتحقق من خلاله .

و قد أراك لا تكترث لما يصيب أبناء جنسك أو دينك من مصائب ، و هذا في حقيقته سلوك تسلكه ، فإن سألتك عن عدم إهتمامك بشأنهم ، فقد تجيبني بأن هذا ليس من شأنك ، بل هو من شأنهم ، و قد أراك مغتماً لما أصابهم ، و عددت العدة لعونهم بما تستطيع ، و هذا سلوك إن سألتك عنه أجبتني بأن ذلك واجب شرعي في حقهم .

ولو لاحظت جيدا لوجدت هناك نوعين من الإجابات و المواقف ، فكل الإجابات الأولى لكل الأمثلة تتناسب مع بعضها البعض ، و تختلف مبدئياً مع الإجابات الأخرى في كل الأمثلة التي سقتها لك .

فالإجابات الأولى تدل على مواقف صاحبها أنه يسلك سلوكاً معيناً في حياته و عند تحقيق مصالحه ، يتوافق هذا السلوك مع مفاهيم معينة قد حددها له و فرضها عليه فكره الأساسي .

و لذا نجد أن الفكر الأساسي في السلوكيات الأولى هو المصلحة ، و المفاهيم التي يقررها هذا الفكر الأساسي على صاحبه ، و هي تبادل المصالح ، و منها تحقيق أكبر نصيب من المتع الجسدية دون الإعتبار للقيم الدنيا .

و يقرر الفكر الأساسي في الوقت ذاته مفهوم سعادة خاص به ، و مفهوماً للحب و البغض و مفهوماً للنجاح و الفشل ، و مفاهيم الإستقامة و الإنحراف ، و الصواب و الخطأ .

هذه المفاهيم و غيرها كثير هي التي تقرر سلوكاً معيناً يسلكه الإنسان ، كالذي مثلت .

فنسمي مبدأ صاحب ذلك الفكر الأساسي المصلحي ، نسميه المبدأ المصلحي .

تابعت قائلاً لحماري :

و هذا المبدأ المصلحي هو الذي تحمله أنت و قومك من الحمير ، و الذي يبقيك أنت و قومك حميراً ، لا ترقون أبداً لأن تكونوا من العقلاء .

قال حماري :

أوتسمي حياتنا إذن حياة دنيئة أو منحطة ؟ فمبدؤنا كما ذكرت هو ذلك المبدأ المصلحي الذي قلت ؟

قلت :

أنا لا أشتم حياتكم أو مبدأكم ، و لكني أصور لكم واقعكم الحقيقي النتن المشين .

فالمبدأ المصلحي هو الذي أضحى مشرذمكم ، و ظالم فقيركم ، و قاهر ضعيفكم ، و معز ذليلكم ، و مذل عزيزكم ، و منكد عيشكم ، و قاهر شعوبكم ، و مسلط غيركم عليكم .

و هو الذي أمسى مُقل أدبكم ، و مُكثر سفهكم ، و مبدد علمكم ، و مضل عملكم ، و مُطمع عدوكم فيكم .

قال حماري و كأن العزة أخذته بالإثم :

أوهل عسيتم أنتم العقلاء أحسن منا ؟! و حياتكم أكرم من حياتنا ؟

قلت :

إذن عليك أن تعاشر العقلاء ، أو تصبح عاقلاً فتتعرف على شيء لم تكن قط تعرفه .

ثم سكتّ .

ثم قلت :

أولا تريد أن تسمع شيئاً عن مبدأ العقلاء ؟ أو أنك مغضب ؟

قال حماري :

لا .

لست مغضباً ، و لكني لا أتصور أن كل الحمير كما وصفت لي من الإنحطاط و التخلف ، فمنا الأغنياء جداً ، و منا المثقفون جداً ، و منا العلماء و المبتكرون ، و منا كذلك المفكرون ، و لا تستطيع أن تنكر هذا .

قلت لحماري :

إنه لا يمنع بتاتاً أن يصبح أحد الحمير ذا ثراء فاحش ، و لا يمنع أن يصبح مثقفاً ، أو عالماً ، أو مبتكراً ، أو مفكراً ، فهذا لا يرقى به من عالم الحمير إلى عالم العقلاء ، إلا إذا كان علمه أو ثقافته أو فكره مغيراً سلوكه و طريقة عيشه .

أي لن يتغير سلوكه إلا إذا غير فكره الأساسي ، إي إلا إذا غير مبدأه إلى مبدأ العقلاء ، فيصبح حينها عاقلاً .

و لن يكون هناك مجتمع عقلاء ، حتى يكون مبدأ العقلاء هو الذي يسود علاقاتهم بفكره الأساسي و نظامه .

و لن تكون هناك حياة عقلاء حتى يعيشون بحسب هذا المبدأ ، فيكون فيهم المبتكر و المثقف و العالم و المفكر ينتمي إلى عالم العقلاء ، حينها سيكون علمه و إبتكاره و فكره علماً ناهضاً غير مؤذٍ ، أو مؤدٍ إلى كوارث تفسد أو تزيد الأرض و المخلوقات فساداً .

قال حماري متهكماً ، مغيظاً :

إذن حدثني عن مبدأ العقلاء هذا ، فعدت لا أفهم أن يكون عالماً كأينشتاين ، أو قائداً كهتلر ، أو روزفلت ، أو ممثلة كمارلين مونرو أو طبيباً كفلمنج ، أو مفكراً ككارل ماركس ، أن يكون كل هؤلاء حميراً ؟؟ .

قلت لحماري :

نعم سأحدثك عن العقلاء و مبدئهم .

أو رأيت الأمثلة التي قلت لك غير بعيد ، فكل الإجابات الأخرى للأسئلة عن المسائل التي سقت ، هي التي تأتي في إطار السلوكيات التي يسلكها العقلاء إنطلاقاً من المفاهيم التي يحملونها عن الحياة ، و المقررة من الفكر الأساسي الذي آمنوا به .

فهم لا يغشون و لا يكذبون ، و لا يسرقون ، ولا يزنون حتى ولو خالف هذا السلوك مصالحهم المادية و متعهم الجسدية .

و هم يتعاملون بالحسنى و يخدمون الناس ، ويقومون على مصالحهم ، و لو كلفهم ذلك جهداً و مالاً ، و يقومون به حتى ولو لم يُعاملوا بمثله من غيرهم .

ثم إنهم ينتصرون للمظلوم ، و المصاب ، و الملهوف دون مقابل مادي ، و لو لم يعاملوا بمثله من غيرهم .

ثم إنهم يمتنعون عن ما يضر الناس من أفعال ، حتى ولو كان ذلك مما سيجلب لهم من الخير و المال الشيء الكثير .

فهذه السلوكيات و التصرفات عندهم توافق مع المفاهيم التي قررها عليهم الفكر الأساسي الذي آمنوا به .

أما هذا الفكر الأساسي الذي أحدثك عنه فهو الإيمان بالله ، الخالق لهذا الكون و لجميع المخلوقات ، وهو هو الله وحده ، الإله المعبود ، المتبع ، المطاع ، الآمر الناهي ، رب كل هذا الكون و المتصرف الوحيد فيهم .

و كذلك الإيمان بملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و البعث و النشور و الجنة و النار ، و الإيمان بكل ما جاء على لسان رسوله محمد صلى الله عليه و سلم ، وما جاء في القرآن الكريم المنزل من عند الله سبحانه و تعالى ، رحمة و هداية للعالمين .

والإيمان بما يتعلق بهذا الفكر الأساسي من مفاهيم ، كالقضاء و القدر ، و مفهوم الرزق ، و التوكل ، و الهداية ، و الضلال .

و كذلك الإيمان بالمفاهيم المتعلقة بالأفعال ، كمفهوم العلاقة التي تربط الإنسان بالخالق ، و مفهموم العلاقة التي تربط الإنسان بغيره من بني الإنسان ، و كذلك مفهوم العلاقة التي تربطه مع نفسه .

فكانت علاقة العبد مع الله تتمثل في صورة الصلاة والصيام والحج و الزكاة و النوافل من الصلوات والصدقات المندوبة و غيرها ، وكانت علاقة الإنسان مع غيره من بني الإنسان في جميع نواحي الحياة السياسية و الإقتصادية والإجتماعية و غيرها من الأفراد و الجماعات و الدول ، و كذلك كانت علاقة الإنسان مع نفسه بالتخلق بالخلق الحسن ، و إتخاذه منهج في مأكله و ملبسه و مشربه بكيفية معينة حددها الشارع له .

لقد حدد لنا هذا كله مفاهيم معينة في الحياة ، كالمفاهيم عن الحب و السعادة و الحرية و العزة ، و المفاهيم الأخرى عن التضحية و الإيثار و إغاثة الملهوف ، والصدقة و بر الوالدين ، و حماية المال و الدم و العرض ، و الإنتصار للمظلوم و المحروم و المعدم ، و مفاهيم أخرى كثيرة فيما يتعلق بالروابط التي تربط الإنسان بغيره من بني الإنسان .

****

الفصل الخامس

حماري
و
مبدأ الإسلام

قلت لحماري :

هذا الفكر الأساسي ، و هذه المفاهيم المرتبطة به ، و هذا النظام المقرر من خلالهم ، هو مبدأ العقلاء الذي ذكرت لك ، و الذي يسمى بالمبدأ الإسلامي ،، هذا المبدأ هو الذي عنده القدرة بنقل الحمير إلى عقلاء ، و هو هو الذي يرقى بهم من عالم الحمير إلى عالم العقلاء .

قال حماري :

لله درك يا سيدي ،،

لقد إستدرجتني كثيراً حتى وصلت بي أخيراً إلى ما لا أحب ، فهذا الإسلام الذي تقول هو الذي جعلنا و قومنا حميراً ، و هو سبب تخلفنا .

أولا تنظر إلى الحمير الصفر و قد نهضوا ؟ و هم لم يعتنقوا هذا الإسلام الذي تقول مطلقاً ؟ و هم ليسوا في حاجة إليه ، و لم يحتاجوا إليه البتة .

أما نحن الذين إعتنقنا هذا المبدأ الذي تسميه مبدأ العقلاء ، بقينا به حميراً ، بل إننا فوق ذلك حميرٌ متخلفون .

مهلاً يا سيدي ألا تنظر إلى بلادنا و بلادهم ، و إلى قوتنا و قوتهم ، و إلى أجسادنا و أجسادهم ؟

قل لي بالله عليك من يصنع الأسمنت الذي اصبحنا نبني به بيوتنا ؟ و من يصنع القماش الذي نكسو به أنفسنا و أبناءنا و أزواجنا ؟ و من يصنع المكائن التي تُختاط به الملابس ، و من يصنع السيارات و الطائرات و القاطرات التي نتنقل بها ؟

بل و من يبني لنا مدننا ؟

بل حتى من يوفر لنا غذاءنا من القمح و الشعير و الأرز ؟

بل و من يعد لنا البذور التي نقيم بها زراعاتنا ؟

بل إنك تقرأ في ورق هم صانعوه .

بل و من يستخرج لنا معادن الأرض و ثرواتها ؟

بل و من يصنع لنا أواني و أجهزة الطبخ التي نطهي بها ؟

بل حتى أجهزة التعليم هم الذين انشؤوا لنا قواعدها و أصولها ، و يؤسسون لنا فلسفاتها و ضوابطها .

و غير ذلك كثير مما لا يحصى . ثم تأتيني و تقول و تتحدث لي عن الإيثار و التضحية و الرابطة الأخوية في الإسلام و غير ذلك ، إني لا أراك إلا تهرول حيث أنت مكانك ، و لسانك هو الذي يطول و يفعل .

فلست أنت الذي يركب الطائرة ، و لست الذي تحب أن تراها تطير .

و لكن قل لي يا سيدي ، ألا تراني و قومي نصلي الخمس صلوات في المسجد ؟

ألا ترانا نصوم رمضان ، و غير رمضان ؟

ألا ترانا نحج ؟ و نكثر الحج ، لا نمل و لا نكل ؟

و ألا ترانا نقوم الليل ؟

ألا ترانا نتصدق و نزكي ؟

أوهل نفعنا ذلك كله شيئاً ؟ لننهض و نلحق بالأمم الأخرى ؟

ثم أراني مثلك يدعو لمبدأ العقلاء كما تسميه ، و أنه يجعل الحمير عقلاء .

أفٍّ لك ، و ما تدعو .

إدّع ما شئت . و لكن لا تدع ما لا فائدة منه ، فتضيع وقتك و مالك ، و إلتفت إلى ما هو أنفع لك و لعيالك ، أفٍّ لك .

إن أردت فادعوني إلى مبدأ آخر أنفع ، إن لم يكن ليعجبك المبدأ الذي يتبعه العالم أجمع يومنا هذا ، إذا كنت ترى فيه نهضة تفوق نهضة الحمير الصفر و العالم أجمع .

**

نظرت إلى حماري مشدوهاً لما قال مغيضاً ، و تركته شاعراً بخيبة أمل تنتابني ، أحادث نفسي ، و قد إعتلى وجهي ظلة سوداء وكأن الدم إحتجزته المآقي في سُدّته ، يعتريني إحباط عظيم .

ولذا آثرت أن لا أجيبه حينها فلست الذي يحب الجدال و هو مغضب ، و ليس حماري في موقف المستمع المنصت و المجادل ، بل إن موقفه الآن على الأقل موقف المتهجم المتهكم المتعدي لحدود الأدب ، و ليس مقامنا هذا مقام تسامح لأستسمحه ، و ليس هو بمقام المتشاجر فأهديء من غضبه .

أخذت نفسي غضبان أسفاً ليس من سوء أدبه فحسب ، وليس لأني قد أدركت درجة تخلف فهمه ، فقد يكون أي رجل منا جاهلاً ، بل لأني أدركت أن حماري كجلّ الحمير قد شيد لنفسه قصراً من الأفكار الخاطئة الضالة و المضلة ، إرتضاها لنفسه ، بل و أقام عليها تعصباً أعمى ، يُعجز أمثالي إحداث أي تغيير في فكرهم وسلوكهم و طريقة عيشهم ، لحاجتي إلى الهدم أولاً ، ثم البناء تالياً بفكر صحيح .

فليس الهدم الفكري كسهولة هدم الأبنية بل هو أشد و أعنى ، حيث أنه لا بد لمن يراد له التغيير أن يرتضي الجدال إبتداءً ، ثم يرتضيه بالحكمة ، أي بالبراهين العقلية ، ثم يرتضي التنازل عما كان يحمله من فكر ، مُحلاً مَحِلّه الحق ، وفي هذا صعوبة بالغة ، فتجاوز الهوى ، و عزة النفس الكاذبة ، و كراهية التنازل عن عن العادات القديمة ، أو فقدان المصالح المرتبطة بالفكر القديم ، كلهم يقفون حاجزاً دون التغيير الفكري الشخصي .

عدا أن إرادة التغيير تتطلب عزيمة من صاحبها ليسخر شيئاً من جهده و وقته ، و ربما شيئاً من ماله ، في سبيل تعلم و تبني الفكر الآخر الصحيح .

و لقد أصابني مع حماري الإحباط العظيم ، حين كنت أظن جهلاً أني قد بلغت مع حماري نهاية الطريق ، فإذا بي أجد نفسي في أوله و بدايته .

و ياليته طريقاً ممهداً ، بل هو طريق وَحِل شائك ، تحفّه الوحوش من كل جانب ، دون أن أأمن جانب حماري الذي يقف موقفاً عدائياً رافضاً تجاه ما أدعوه إليه .

فهو يرى في الفكر الإسلامي سبب تخلفه و جهله ، و أن هذا الفكر هو الذي جعل منه و قومه حميراً ، بل حميراً متخلفين . موقف حماري هذا تجاه الفكر الإسلامي يذكرني بالذين يعادون الفكر لإسمه ، وقد يكونون هم أهله ، كما يسمون مسلمين .

و لا أعجب موقف هؤلاء من الفكر الإسلامي ، لأنهم لا يعرفون إلا إسمه فقط ، و شيئا من الأحكام الفقهية و الأعمال التعبدية ، و يظنون أنهم يعرفونه ، لأن الذي علمهم إياه و صوره لهم بهذه الطريقة ، قد حرص أن يصنع منهم حميراً لا تعي و لا تفقه شيئاً ، فأصبح الفكر الإسلامي لهم بمثابة الراية الحمراء للثيران التي تثور أنفسهم لرؤيتها ، وينطلقون لمناطحتها و قد تكون لهم كساءً و ستراً .

لذلك فإن شعب الحمير يظنون أن الإسلام هو نطق الشهادتين أو ذكرها ، و يكتمل دينهم حين القيام بالشعائر التعبدية من الصلاة والصيام و الحج و الصدقات وما يتبعهم من نوافل تعبدية بين العبد و ربه ، و كفى . و أنهم يكونون بهذا قد إعتنقوا الدين الإسلامي كاملاً ، و بهذا الظن من الإعتناق ، أنهم سيدخلون الجنة حتماً .

و لو كان الإسلام كذلك حقاً ، لصدقوا في ظنهم ، أن الإسلام هو سبب تخلفهم ، و أنه هو الذي صبغهم حميراً ، و لكن هيهات لهم ، ماكان الله ليظلمهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون .

و عجباً من هذه الإزدواجية في شخصية الحمير أنهم بالرغم من أنهم يظنون أن هذا الإسلام هو الذي صبغهم حميراً ، فهم يذهبون فيصلون و يصومون و يحجون و يتصدقون .

و يذكرني حالهم هذا بحال علماء الطبيعة الفيزيائيين و البيولوجيين و الفلاسفة من الحمير الصفر و هم يضعون و يدرسون و يطورون نظرية التطور المادي للمخلوقات (نظرية دارون) و التي تقول :

إن الكون و الإنسان و الحياة ليست مخلوقة لخالق ، و هي التي خلقت نفسها في نهاية المطاف ، ثم يذهب هؤلاء العلماء يوم الأحد إلى الكنيسة يصلون أمام الصليب ، الذي هو بزعمهم إبن الله عيسى .

فأين الله و أين ما يدرسون ؟ !

لا عجب أنهم بقوا كلهم حميراً .

بل يظن الحمير أن مبدأ الإسلام هو السد الذي يقف في وجه النهضة الصناعية الزراعية و العلمية و التكنولوجيا ، و في وجه التبادلات التجارية و العلاقات الدولية ، و غيرهم .

بل و قد إستن الحمير العلماء و العباقرة و الأذكياء من الحمير السمر سنة بهذا الفكر المنحرف ، أنهم حملوا متاعهم و عيالهم و أزواجهم ، و إنتقلوا تحت ترحيب عظيم إلى بلاد الحمير الصفر ، يعينونهم " أي يعينون الحمير الصفر " في نهضتهم العلمية والصناعية و العسكرية ، و يحملونهم على أكتافهم " حمير على حمير " .

و كثير من هؤلاء عاف الإزدواجية الشخصية ، و ترك بذلك العبادات التي كان يؤدي بعضها ، ويراها لم تكن إلا طقوساً لا فائدة منها أمام الخضم العلمي و التطور الهائل في بلاد الحمير الصفر .

و بقيت الشهادتان كما هي من قبل عندهم كخصلة الشعر في آخر ذيل الحمار ، ينشون بها عن أنفسهم أي إدعاء بأنهم تركوا الإسلام ، كما تنش عن جسد الحمار الحشرات .

تعالت الشهادتان عن ذلك علواً كبيراً .

ثم إن حماري بدلاً من أن يرى أن نهضة الحمير الصفر لم تكن إلا نتيجة حميرة الحمير السمر الناتجة من فساد فكرهم ، و تركهم الإسلام الحق .

بدلاً من ذلك ، رأوا أن سبب حميرتهم هي إعتناق الإسلام ، و قد ألبس عليهم الشيطان ذلك أنهم رأوا الحمير الصفر الكافرين ، و قد نهضوا نهضة مذهلة ، دون أن يكونوا مسلمين .

و قد أدى هذا الإفتتان بنهضة الحمير الصفر إلى الإنهزام الفكري و النفسي ، و تأصُّل حالة الجهل بالإسلام ، و فقدان الثقة به ، و بصلاحيته لنهضة عالمية واسعة .

****

الفصل السادس

حواري
مع
حماري

خرجت يوماً يلي أياماً بعد حديثنا الذي كان ، متجهاً إلى عملي :

فقلت لحماري :

السلام عليكم

قال حماري :

صباح الخير يا سيدي

**

لم أعد أعجب رده لي بصباح الخير ، و أنا ألقي عليه السلام ، فقد أدركت أنه لا يعي معنى الألفاظ التي أقول ، و المفاهيم التي ترمي إليها الألفاظ ، بل و لا يعرف الحكم الذي يرتبط بإلقاء السلام ، و رده .

و كل مرة أحادثه فيها يزيدني حزناً ، و يضيق صدري ، و لكني ما ألبث أن أعود بأمل قوي ، و عزيمة ، و تحدي ، كردة فعل معاكسة لما يفعل أو يقول .

و بعد حديث إلى حماري يأنسه ، لاطفته به ، قلت له :

مالي أراك حين حدثتك يومئذ عن الإسلام ، قد أبديت لي ما أبديت ، و كأني قلت شيئاً كريهاً يُغضب ؟

قال حماري :

نعم غضبت ، لأني سئمت كل من يحدثني عن الإسلام ، فأنت تريدني أن أتخذ نمطاً من العيش كريهاً .

قلت :

حاشا لله ، و ما ذاك ؟

قال :

إن كل من يريد أن يلتزم بالإسلام أو يتبعه ، عليه أن يتخذ مظهر الشيوخ و منظرهم ، و أنا لا أحب أن أتصف بمظهرهم .

ثم إن الإسلام يحرم على الإنسان كل طيبات الدنيا ، حتى ليكاد أن يحرم عليه الماء والهواء .

ثم إن الإنعزال عن الناس و الإنغلاق عنهم سمة ظاهرة عند إتباع الإسلام ، وأنا لا أحب ذلك .

ثم إني لا أحب أن أكون ممن يتعرضون السارح و المارح من الناس بالنصائح ، و المواعظ ، و التدخل في شؤونهم (كما يسمونه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر).

ثم إني لأرى كل من تدين ، أنه يتكلف في الحديث ، و يلوي لسانه باللغة العربية الفصحى ، محاولين التميز عن الناس ، و أنا لا أحب ذلك ، بل أكرهه .
و إني لأرى المتدينين أقل الناس إنضباطاً ، و أكثرهم فوضوية ، و أبطؤهم حركة .
و أن أبقى حماراً كغيري ، خير لي من ذلك كله .

قلت لحماري :

بالرغم من المظهر الذي يحلي الشيوخ بالوقار ، فأنا لا أدعوك له ، و لا لأي سلوك من السلوكيات التي ذكرت ، بل أدعوك إلى الإسلام ، و إلى الفكر الراقي به .

قال :

أو ليس هذا الإسلام ؟

قلت لحماري :

أرأيت أنك تحمل تصوراً مخالفاً لصورة الإسلام و فكره الراقي ؟

أو رأيت إن أحداً من الحمير أراد أن يرتقي ليصبح من العقلاء ، هل تظن أنه بهذه السلوكيات سيرقى ؟ و يصبح من العقلاء ؟

قال حماري :

لا ، لا يمكن .

قلت لحماري :

إذن ، فأنا لا أدعوك إلا لأن ترتقي و تصبح من العقلاء ، و هذا لن يحدث إلا بالفكر الراقي ، و ليس بالإلتزام ببعض أحكام الإسلام ، حتى و لو كان إلتزاماً بإجتهاد صحيح .

قال :

كأني لم أعد أفهم من هم العقلاء ، و ما هي الحياة الراقية التي تقصد ، حياة العقلاء ! ، و كأنك تتحدث عن إسلام جديد غير الذي نعرف أنا وقومي و آبائي .

أو كأنك تتحدث عن نهضة من نوع بديع لا يقدر عليها حتى الحمير الصفر .

هل معنى ذلك أنكم بالحياة التي تحكي عنها ، و بالفكر الراقي الذي تدعيه أنكم ستصنعون طائرات أسرع ، و قنابل ، و صواريخ من نوع جديد ، و غير ذلك كثير ؟

قلت لحماري و أنا أستبطئه :
سأجيبك إن أردت ، و أفهمك إن أردت ذلك الآن ..

قال حماري :
لا ، لا تجبني على ذلك ، و لكن قل لي : أولسنا مسلمين ؟

و ألسنا نؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و باليوم الآخر ، و بالبعث و النشور ، و الجنة و النار ؟

و إن كنا كذلك فلماذا تنعتنا بالحمير ؟ أو لماذا بقينا حميراً حسب تصنيفك .

قلت لحماري :
أنتم لا تؤمنون بما قلت آنفاً ، و لكنكم تصدقون فقط ، و هناك فرق بين التصديق و الإيمان ، فالإيمان تصديق جازم معزز بأدلة عقلية و نقلية قاطعة ، و هو أعلى درجات التصديق ، و هو المطلوب كشرط أساسي لما يأتي بعد الإيمان .

أما التصديق الظني فمعناه أن المصدق يرجح خبر على خبر ، مع إحتمال وجود النقيض ، و هذه درجة ضعيفة قد تكون عند الكافر كذلك ، و لذلك فإنها ليس لها قيمة لتغيير أو حمل الإنسان على ما يترتب على الإيمان من عمل و إتباع .

أما من يؤمن منكم ، و بالرغم من هذا بقي حماراً ، فذلك لأنه أخذ شيئاً ، و ترك شيئاً آخر ، مثل المشركين العرب أيام الرسول محمد صلى الله عليه و سلم ، فقد كانوا يؤمنون بوجود الله فطرة و عقلاً ، و ربما بملائكته و بعض كتبه ، و لكنهم رفضوا إتباع محمد صلى الله عليه و سلم ، و إتباع ما جاء به ، و لذلك بقوا حميراً ، و لم ينفعهم إيمانهم بوجود الله شيئاً .

و قد سمى الله من يأخذ بالدين مفصولاً عن نظامه مشركاً ، لأن من لم يأخذ النظام المنزل من عند الله ، فسيأخذه حتماً من عند غير الله ، فيكون الإيمان بوجود الله ، أما الإتباع فهو لغير الله ، و يكون قد أشرك مع الله إلهً آخر.

أما الكافر فهو الذي يجحد أمراً ظاهراً للعقل لا جدال فيه ، وهو وجود الله سبحانه ، و بالتالي فإن ضلاله أوضح و أجلى من المشرك ، الذي يعاني حتماً من إزدواجية الشخصية ، و بالتالي يكون الكافر كغيره من المشركين في الإنتماء الحميري .

وليس المؤمن بوجود الله و مقيم الصلاة و باقي الشعائر التعبدية " من المسلمين " ، بناجٍ من الشرك ، إذا كان متبعاً لغير أوامر الله ، و غير مجتنبٍ لنواهيه ، و إرتضى بغيرها بديلاً .

هذا هو حالكم الذي أبقاكم حميراً ، حيث لم يفدكم إقراركم بوجود الله ، و إقامة الشعائر التعبدية له شيئاً .

إلا أني قد ذكرت لك أمثلة لبعض من يؤمن بالله و يخالف شريعته ، فهذا مجرد إفتراض جدلي ، لأن من يؤمن بالله بحق اللفظ ، لا يمكن أن يرتضي غير شرع الله بديلاً .

قال حماري :

كأني بدأت أفهم ما تقول ، و لكن هل هذه حقاً علاقة الكفر و الشرك بكوننا حميراً ؟

و لكنك تقول أن العالم أجمع أصبح حميراً ، و لا يوجد إلا قليل من العقلاء ، فلم تدعي ذلك ؟ و قد تكون الحقيقة خلاف ذلك ، أن العالم أجمع هم العقلاء ، و أنتم .... لا تؤاخذني فيما أقول ، فما يدريني ؟

قلت لحماري :

لا بأس عليك فلكل واحد الحرية بما يدعي ، و الحقيقة تبقى واحدة لا تتغير برغم أنف كل حمير العالم .

و قد نُعت العقلاء بأكثر من ذلك ، و بالتطرف ، و الأصولية الإجرامية ، و الإرهاب الفكري .

أما ما هي علاقة الكفر و الشرك بصبغة الحمير ، فذلك أن الكفر و الشرك يهبط بفكر الإنسان و سلوكه إلى درك الحيوان ، فيصبح مفتقداً لفكرٍ يميزه عن الحيوان ، في كيفية إشباع غرائزه و حاجاته العضوية ، فتجد الأفراد و الجماعات و الدول تتخذ كل أساليب العنف ، و الإعتداء ، و الظلم ، و التحايل و الخبث ، و بكل فوضوية و وقاحة ، لإشباع تلك الغرائز ، التي لا تُشبع عند حدٍّ ، و لا تنتهي عند غاية .

فيقومون بالإعتداء على أنفسهم ، و فيما بينهم ، و على غيرهم بدون ضوابط ، و لا هدى ، و لا كتاب منير .

و كما نرى اليوم إلى ما إنتهى إليه العالم من هيمنة مؤسسة على أفراد ، و هيمنة مؤسسة على مؤسسات ، و من هيمنة دولة مؤسسة على الجميع ، ثم هيمنة دولة على دول أخرى ، حتى أصبح عالم الحمير الآن يهيمن ثلثه على ثلثيه ، أي أن الأرض أصبحت حكراً للثلث منهم على الثلثين الآخرين .

ثم أنظر نتيجة ما آل إليه هذا الحال من مجاعات و فقر مدقع و أوبئة و ذل و قهر و إنعدام الحقوق و جرائم دموية شنيعة منظمة ، وتدني أحوال الناس و معيشتهم ما جعل أمهات يبعن أبنائهن أو يرمونهم ، أو يقتلونهم أحياءاً .

غير ما آل إليه هذا الحال من تدهور روحي و خلقي و إنساني عالمي ، أصبح عرفاً تتقلده الدول و الشعوب و الجماعات و الأفراد و المؤسسات التجارية و الصناعية و الزراعية و غيرها ، في كل علاقاتها و تعاملاتها و قوانينها و ممارساتها ، و غير ذلك كثير مما يخفى و مما لا يخفى .

هل فهمت يا حماري شيئاً عن علاقة الكفر و الشرك بالحمير ، و تكوينهم النفسي و العقلي على هذا الأساس ؟ و أثر هذا التكوين ؟

أو تريد أن أحكي لك عن الأمراض النفسية المهلكة لدى أغنياء الحمير بسبب الكفر أو الشرك ؟

قال حماري :

لا ، لا داعي ، و لكن هل لما تتحدث عنه مرد من سبيل ؟

قلت لحماري :

لا يمكن إلا بإيجاد الحياة الراقية بالإسلام الحقيقي الذي أتحدث عنه ، فتختفي كل هذه الكوارث السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية .

قال حماري :

و لكن هذا مستحيل ، فأنى لك تغيير كل الحمير في العالم إلى عقلاء ؟

قلت لحماري :

إنه لا يمكن لي تغييرهم إذا لم يريدوا هم تغيير أنفسهم ، و لا يتغيرون إلا عندما أوجد لهم الحياة الراقية التي فوق أرضها يعيشون .

قال :

و كيف ستوجد لهم الحياة الراقية هذه التي تقول ، حتى يعيشوا بها فيتغيرون .

قلت لحماري :

عندما يُفرض عليهم النظام الذي فرضه الله و أوجبه على عباده فرضاً في جميع جوانب الحياة السياسية و الإقتصادية و العلمية و الإدارية و القضائية ، و كذلك في كل جوانب المعاملات .

قال حماري :

أو بزعمك أن الإسلام سيُحدث هو و الفكر الراقي الذي تتحدث عنه نهضة صناعية و تكونولوجية ، فنصنع الطائرات و التلفاز و ناطحات السحاب و مدنية راقية ؟

**

إلى هنا وددت لو كان حماري قد فهم ولو نصف ما قلته له ، فهو يسألني في الغالب أسئلة لا تدل على حسن متابعته و فهمه لإجاباتي ، فأظنه لا يفكر في إجاباتي عندما أجيبه ، و لكن يفكر فيما عليه أن يسألني عنه ، فيلقي علي سؤالاً لا يتعلق بإجابتي ، أو فيما أحدثه عنه في الأساس .

وأظن أني كثيراً ما أعطي الحمير أكثر من قدرهم العقلي و الفكري عندما أحادثهم ، فأستخدم ألفاظاً لا يعرفون معناها ، بل و لا يعرفون مدلولاتها اللغوية أو الأدبية أو الشرعية ، و قد يكون للفظة واقع عملي ، و لا يدرون عنه شيئاً .

فلا أظن حماري يفهم معنى السياسة اللغوي ، أو يعرف المفهوم المرتبط بها ، و الواقع العملي لها ، بل و كما هو شائع بين الحمير ، أن السياسة هي العالم الذي يخوض فيه رؤساء دول الواقع و ملوكهم و المراسم التي يدورن في فلكها ، و هي التدخل فيما لا يعني الإنسان ، و هي الفلسفة في العلاقات الدولية و غيرها ، و ما إلى آخر هذه التصورات ، خروجاً عن المعنى و التصور الحقيقي لها أنها رعاية الشؤون ، بدءاً من رعاية شؤون الفرد لنفسه و لأبنائه ، و زوجه ، و رعاية شؤون من يعولهم و مصالحهم ، و رعاية شؤون الأعمال المنوطة به ، و رعاية شؤون الأشخاص المسؤول عنهم في دائرة عمله الوظيفي ، و التجاري و الإداري ، وهي رعاية شؤون الجماعات و الأمم و الدول و الأفراد و الحيوانات .

فسياسة هذه الأمور أي رعاية شؤونها هي السياسة ، و هذا معناها الحقيقي .

و قد تتم هذه السياسة بأي فكر ، إسلامي أو غير إسلامي بغض النظر عن النتائج ، فرجوت أن يكون حماري يفهم معنى " رعاية الشؤون " لأفهمه معنى السياسة .

و لا أظنه فهم معنى الإقتصاد ، أو السياسة الإقتصادية ، و الواقع الذي تتحدث عنه هذه الألفاظ ، فأحدثه ثم أسهب في حديثي ، و قد أكون له كالذي يحدثه باللغة الصينية فيهز رأسه لإرضائي ، أو ليعطي عن نفسه إنطباعاً أن لديه من الفكر أو الثقافة شيئاً يضاهي ما عندي أو يزيد ، فأكون قد أضعت جهدي و يكون هو قد حافظ على حميرته ، و لم يتعد فهم الحمير و طريقة تفكيرهم .

و أظن أن الفجوة الحاجزة بين الحمير و العقلاء قد إتسعت إتساعاً مروعاً ، ما يستحيل عندها التقارب بينهم .

و هذا هو الظاهر ، فلا أجدني أتلفظ بلفظة سهلة أو صعبة ، حتى يحتد الجدال بيني و بينه ، لأنه قد ربط بهذه الألفاظ و لها مفاهيم خاطئة ، مخالفة لما تشير إليه تلك الألفاظ ، إلا ما قد تواضع له حماري ، وأوقفني عند بعض التي لم يدرك معناها ، أو لم يعيها ، فسألني عنها و ما تدل عليه و هو مغيظ .

و لو أن الحمير قليلون لما إكترثت لأمرهم إلا شيئاً يسيراً ، و لكنهم قد أصبحوا السواد الأعظم ، بل السواد بعينه ، و بقي العقلاء بينهم كالشمس أو القمر في عدده بين النجوم .

و وددت أن عند الحمير شيئاً من الصدق و الأمانة لما يسمعون ، أو لما يقولون أو يفعلون ، بل قد تفشى فيهم الكذب و النفاق و خيانة الأمانات ، إلى درجة لم أعد أدرك مداها و واقعها الحقيقي ، و لذلك تجدني أصعق في كل مرة تظهر لي فيها بعض

الحقائق التي تصيب كثيراً من العقلاء باليأس العظيم ، و القنوط من إصلاح أو تغيير حال الحمير .

و لذلك و أنا أتحدث إلى حماري بكل صدق و إخلاص ينبع من قلب صادق يمليه علي مبدئي ، و تتغشاه جوارحي و مشاعري ، أكتشف فيما بعد أنه كان يحدثني و يجادلني من منطلق أني خائنٌ وطني ، أو إنتهازي ضال ، أو على أقل تقدير مغفل أو حالم ، أو لأني أسعى لمال أو جاه أو سلطان .

فقد فوجئت بخبر أُخبرتُه ، أن حماري شوهد يقهقه ساخراً بي وسط حمير آخرين ، لحديث قد حدثته إياه عن الحياة الراقية .

و عظم فعله هذا في عيني لهول صدمتي به ، ليس لحسرة على نفسي ؛ فهل يقابل إخلاصاً و صدقاً مني بفعلٍ كهذا ؟ و هل كنت قد فشلت في أداء رسالتي إليه ؟ !

و لو لم أكن أجادله و يجادلني ، و أعلمه ، لكنت إلتمست لفعله هذا العذر ، و أنا على الحلم لقدير ، و لكن لأرى إلى ما تصير إليه أحاديثي معه ، علني أفهم فعله هذا ، لذلك سأحفظ ذلك ، و أواصل العهد الذي أخذته على نفسي ، و كأن شيئاً لم يكن .

و قد رأيت عند حماري أكثر من أذنين ، فهي ثلاثة أو أربعة ، أذن منصتة ، و أذن جافية ، و أخرى منافقة ، و غيرها مُزورة . فأجده أحياناً قد فهم ما أقول ، أو أكثر قليلاً مما أقول ، كمغزى قولي مثلاً ، و لو لم يؤثر ذلك عليه ، و على سلوكه بعد ! . و أجده أحياناً أخرى يسبح في النفاق ، و أحياناً أخرى يُظهر تكذيبه بكل جرأة تتناقض مع نفاقه و مجاملته .

فأجده يجادلني ، بل و يكثر جدالي أحياناً ما ينبؤني عن صدق عزيمةٍ ، و إهتمام ، يبعث فيّ الأمل بمواصلة العمل و السير معه لغايتي ، و احياناً ينتابني الخوف من نفسي أن أكون واهماً ، أتلمس المبررات الواهنة لأصل إلى غايتي معه .

و أرجو أن لا يكون حسن ظني به و بوعيه و قدرته الذهنية من هذه المبررات التي تنسيني كثيراً ما من كذبه و نفاقه ، و خيانته لي و لنفسه و للعلم الذي أعلّمه .

و ياليت حماري و غيره من الحمير يخلصون لأنفسهم و لو قليلاً ، فهم يتعلمون الحق ، و قد يدرسونه ، بل و قد يقرون به دون أن يكون عندهم الإستعداد لتغيير أنفسهم حسبما يمليه عليهم هذا الحق . و في الغالب أ، الحمير لا يجهد أحد نفسه للبحث عن الحق أو تعلمه ، فالمصالح الشخصية هي الإله الذي يعبدون ، و هو الإله الذي تدور حوله أعمالهم و أفكارهم . و الخوف الخوف إن كان الحق يطلب من أحدهم تأجيل أو تعطيل أو التنازل عن مصلحة من مصالحهم .

أما عن الشهوات بأنواعها و خاصة الجنسية بين الحمير ، و إتباعها و تتبعها بغير هدى و لا كتاب منير ، فحدث و لا حرج ، و كثير منهم من تضلهم عن إتباع الحق ، و تتبعه ، و لو عرفوه ، و لو أقروا به .

و مع ذلك كله يسألني حماري مستنكراً عن موضع التخلف و الإنحطاط الذي أدعي في حياة الحمير ، و يستنكر دعوتي حاجة الحمير إلى فكر و حياة راقيتين ، ولا أدري ما يكون بعد كل هذه الفوضوية السائدة في العالم في كل جوانب الحياة ؟ ألا يبصرها الجميع ؟.

****

الفصل السابع

الحمير و التكنولوجيا

لأعود إلى سؤاله الذي حير كل الحمير ، عالمهم و جاهلهم ، وهو علاقة الفكر الراقي (الإسلام) بالصناعة و التكنولوجيا ، والمدنية الراقية ، أي الكيفية التي يُوظف فيها الإسلام لخدمة العلم و التكنولوجيا ، و الرابط الذي يربط الإسلام بالعلم والنهضة التكنولوجية و الصناعية و غيرها .

و قد طرح حماري هذا السؤال تعجيزاً لي و شكاً منه بالطبع في أن الإسلام قادر على نهضة مدنية كالتي رآها ، و رأى آثارها هو و قومه عند الحمير الصفر ، إنطلاقاً من الظن أن الإسلام يقتصر على الشعائر التعبدية من صلاة و صيام و صدقة ، و دعوة إلى الأخلاق الحميدة .

حقاً و صدقاً ، لو كان الإسلام كذلك لصدق حماري ، و لما حمل الإسلام فكراً راقياً ، و لما إستطاع أن يكون أمة أو حضارة ، و لما تجاوزت أفكاره الجزيرة العربية ، و لما إستطاع أن يصنع نهضة علمية أو صناعية أو عمرانية .

فأقول لحماري ، و غيره من الحمير :
إن المباديء جميعاً بفكرها و نظامها ، ليس لها شأن مباشر بالنهضة الصناعية و التكنولوجية ، من ناحية إبتكارها .

فلو كانت إحدى البلدان تحمل المبدأ الإسلامي في إطار دولة ، أو تحمل غيره من المباديء الغير إسلامية كالرأسمالية و الشيوعية ، فهذا لن يغير من أمر نهضتها الصناعية و العلمية و التكنولوجية شيئاً ، إذا ما تيسر لها تلك النهضة الصناعية ، أو إذا لم يقف في وجهها أحد السياسيين ، يمنعها عنها ، أو يمنعها عنها إحدى الدول القوية .

بل إن القيام بالنهضة الصناعية أو القعود عنها أو منعها ، يأتي من خلال الأنظمة التي تحملها تلك المباديء ، وتطبقها دولها ؛ فتاريخ النهضة الصناعية و التكنولوجية و صنع نواتها ، لم يكن وقفاً على شعب أحمر أو أصفر أو أسود ، أو وقفاً على مبدأ دون مبدأ ، بل قادر عليها كل مريد لها .

و يجب الوقوف على حقيقة أن النهضة الصناعية إنما هي عجلة بدأ في تصميمها ، و تركيب أجزائها ، و صنع نواتها ، و إبتكار دائرتها سيدنا آدم ، ثم مرت على شعوب كثيرة ، حمير و عقلاء ، ثم خضعت للتطوير ، مروراً بحضارات عدة ، كالفراعنة و الفرس والرومان و الأكراد و الإغريق و قوم ثمود ، و غيرهم كثير . ثم مرت بالحضارة الإسلامية التي دفعتها دفعة جبارة ، غيرت بها الموازين .

أما عن تطويرها ، فلم يكن مطوروها إلا أفراد ذوو فكر رياضي و صناعي و كيميائي و فيزيائي ، أعانهم أو كلفهم بها أو سعى على جمعهم لتطويرها خلفاء أو ملوك أو أمراء ، حتى دار الزمان ، و قام الحمير الصفر بنقل و إنتزاع معظم تلك الصناعة و التقنية ، و علمها و أسرارها من أيدي المسلمين إنتزاعاً ، ثم أخذ الحمير الصفر بكل أسباب القوة و القتل و النهب و السلب و التدمير لشعوبهم و شعوب أخرى و بلدان ، في سبيل تطوير هذه النهضة و الأخذ بأسبابها ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه يومنا هذا ، و ما زال هذا المسلسل قائما كمن قبل .

و أثناء غياب المسلمين ، في وقت صراعاتهم مع المعتدين من الحمير الصفر ، و ما آلت إليه هزيمة دولتهم ، و تحول ثروات أراضي المسلمين إليهم ، تفرد علماء الحمير الصفر بالتطوير و النهضة الصناعية و المدنية .

و لم يجد علماء المسلمين بعد هذا المآل من يعينهم و يدعمهم لأن يكملوا مسيرة التطور الزرعي أو الصناعي الذي غرسوا شجرته ، بل وجدوا من يحاربهم على أي مسيرة كتلك .

و هكذا أصبح الحمير الصفر يهيمنون على كلتي كفتي ميزان التطور ، حتى يومنا هذا ، يحملون كفة و يضعون في الأخرى ، حتى رجحت كفتهم رجحاناً فاحشاً ، إستقطبوا بها كل علماء الأرض المتحيمرين ، حمراً و سمراً و صفراً إلى بلادهم ، ليشاركوا إخوانهم من علماء الحمير الصفر نهضتهم ، و ليحتكروا الصناعة و التكنولوجيا ، و ينفردوا بتطويرها .

و لا يمكن للتطور الصناعي أن يتحقق عادة إلا بأمرين ، أحدهما الإرادة و الدعم السياسي ، و آخرهما الدعم المادي من قبل الدول نفسها ، و ليس هناك أمة أو شعب كلهم صناعيين ، أو كلهم علماء فيزيائيين .

ثم جاء أبناءٌ و أحفادٌ للعقلاء حميراً ، وشاهدوا تلك النهضة الصناعية البارزة في بلاد الحمير الصفر ، و رأوا تلك المدنية الرائعة ، فإنبهروا بها إنبهاراً أعماهم عن التفكير السليم ، و عن الربط الفكري الصحيح . فقاسوا الأمور قياس المفتون أمام الشيء الفاتن المُعجز . فأصيبوا بشعور الإنهزام أمام هذا التطور المدني ، ناطحات السحاب ، طائرات ، صواريخ ، كمبيوتر ، تلفزيون ، إتصالات لاسلكية ، إنترنت !!! ، فحكم هؤلاء على غيرهم بالخوارق ، و حكموا على أنفسهم بالعجز و السقوط .

و إعتبروا الحمير الصفر على هذا المقياس أنهم العقلاء ، و هم أهل العزة و الكرامة و القيادة و السيادة ، و أن دين الإسلام رمز التخلف و الإنحطاط و التأخر ، و عُمُوا

عن فكرة أن هذا الذي يرونه إنما هو عمل مادي مقدر و مهيأ لكل شعوب الأرض بإختلاف مبادئهم ، و بدون إستثناء أن كانوا حميراً أو عقلاء ، و لا يمنع من أخذِه إلا أخذّه .

و جهلوا أن الإسلام كفكر راقي ، له علاقة أعمق و أقوم من علاقة المباديء الأخرى بالتطور و النهضة الصناعية ، لأن الإسلام من خلال نظامه قد جعل السعي و العمل في سبيل التطور الصناعي و التكنولوجيا و غيرهما من مباحث العلم المختلفة ، جعل ذلك واجباً شرعياً ، تأثم الدولة ، و يأثم الناس القادرون ، على تركه ، ولذلك جعل من بنود الصرف في بيت المال ، ما هو مخصص للصناعة و التطور الصناعي ، و العلوم التكنولوجية المختلفة ، و لكل العلماء القائمين و القادرين عليها .

و أقول إن علاقة الإسلام بالتطور الصناعي و التكنولوجي أعمق و أقوم ، و ذلك لأن هذا التطور لو قُدّر له أن يسير بالفكر الإسلامي في القرنين أو الثلاثة الأخيرة ، لما إتخذ "التطور" تلك الصورة البشعة التي حصلت على أيدي الحمير الصفر .

و ذلك لأن الفكر الإسلامي من خلال نظامه لم يُجز أن يستأثر المسلمون في مركز دولة خلافتهم بالتطور و النهضة و العلوم دون البلدان الأخرى التي دخلت في دار الإسلام ، حتى ولو كان جُلّ أهلها من غير المسلمين ، فيحرمونهم من النهضة و الإنتفاع بها .

تالياً : أن الإسلام لم يُجز للمسلمين أن ينهبوا أو يغتصبوا خيرات و ثروات البلدان الأخرى التي يدخلونها في سبيل نهضتهم أنفسهم ، في الصناعة و الزراعة و التجارة و غيرها ، كالذي فعله و ما زال يفعله الحمير الصفر في البلدان التي إغتصبوها ، و لا نقول التي دخلوها .

ثالثاً : أن الإسلام لم يُجز للمسلمين أن يُبقوا البلاد التي يدخلونها متخلفة ، أو يمنعوا علماءها من تطوير صناعاتهم و علومهم ، أي يمنعونهم من الإنتاج ، كما يفعل الحمير الصفر، و ذلك لغاية إستعباد شعوب البلدان المحتلة ، لتكون سوقاً إستهلاكية للإنتاج القائم في مصانعهم و معاملهم و مزارعهم ، فتصاب تلك البلدان بالفقر و التخلف و المجاعات ، مقابل التطور و النهضة و الرفاهية التي تحصل في بلاد المحتلين .

رابعاً : أن الإسلام لا يجيز تطوير صناعات أو تكنولوجيا على وجه يُحدث ضرراً بالناس بأي صورة من الصور ، أو كيفية من الكيفيات .

فلو كان المسلمون هم القائمين على إكتشاف الذرة و إنشطارها ، لإمتنعوا تبعاً لمنهج الإسلام و تعاليمه إستخدام هذه الحقيقة العلمية لتطوير قنبلة ذرية أو إستخدامها ، من حيث أن قتل الأبرياء ، من الشيوخ و النساء و الأطفال و الحيوانات ، و حرق الأرض و الزروع ، و تدمير المساكن ، و كل ما ينفع الناس سواء في أرضهم أو أرض العدو، من المحرمات .

و لو كان المسلمون هم القائمين على تطوير المصانع و الألات ، والسيارات و الطائرات ، لما كانوا صنعوها أو طوروها بكيفية تسبب تلويث الهواء ، أو إفساد الأرض ، أو إتلاف المزروعات أو إيذاء المخلوقات ، لأن الإسلام لا يجيز ذلك لأحد من العالمين .

و لو أنهم هم الذين قاموا على إنتاج المستهلكات و صناعتها بما يمليه عليهم المبدأ الإسلامي ، لما صنعوها رديئة لزيادة الحاجة إلى إصلاحها ، أو ذات عمر قصير لزيادة الحاجة على تغييرها .

فالإسلام لا يجيز لأحد أن يبخس الناس أشياءهم ، أو أن يطفف الكيل لهم ، أو أن يغشهم ليأكل أموالهم بالباطل .

و لو أنهم هم الذين قاموا على المنتوجات الإستهلاكية ، و تقرير الأسعار في السوق العالمية و المحلية ، لما جعلوها كما يفعل الحمير الصفر ، تضاهي أسعار إنتاجها عشرات الأضعاف أو أقل أو أكثر ، بل إن سعر السلعة في الإسلام مقرر بأن لا يتجاوز الربح فيها بأكثر من نصف تكلفة إنتاجها .

و كذلك لا يجيز الإسلام إحتكار صناعة أو تجارة لأحد ، دون باقي الناس ، ناهيك عن كتم العلم ، أو كتم أسرار الزراعة و الصناعة .

فلا يكون بذلك لأحد من الناس أو التجار أو أصحاب الأموال قوة و سلطان على غيرهم من الصناع أو الزراع أو التجار ، فلا يهلك الضعيف و تزداد قوة القوي ، و يفقر الفقير و يزداد الغني غنى . و لأخذ التطور الصناعي و الزراعي و الإنتاج وجهاً زاهياً مزدهراً ، يملكه جميع الناس و يقدرون عليه ، و ليس محصوراً على مؤسسات رأسمالية ، و رأسماليين مستبدين ، يملكون من الأموال ما يمتلكه شعب كامل .

و لو كان القائم على بناء المدنية الحديثة هم المسلمون بمبدأهم الإسلامي ، و هم القائمون على بناء المدن ، ولو أقاموها هم لما أقاموها و طوروها بكيفية فيها من

الضرر على الفقير و المسكين و إبن السبيل ، و ضياع الحقوق ، و تطاول البنيان ، و كشف العورات ، و إزدحام الناس و تضارهم به ، ، قلة العناية الصحية و التعليمية ، أو الخدمات الإجتماعية ، أو الخدمات القضائية و الأمنية ، أو تضارهم بصعوبة التنقل و الأسفار .

فالإسلام يبيح تطور المدنية ، بل و يعين عليها ، و لكن في إطار عدم حدوث الضرر ، أو إنتقاص الحقوق ، بل إن تطويرها واجب شرعي ، إذا كان ذلك يخدم مصلحة كل الناس ، غنيهم و فقيرهم على حد السواء ، أو إذا ما كان في تخلفها ضرر على أحد .

أما ما يفعله الحمير الصفر فإنهم يتعمدون بناء المدن و تطويرها ، كان هناك حاجة لذلك أم لم يكن ، تُحدث أضراراً على البيئة و التكوين الإجتماعي أم لا تُحدث ، يستطيع الفقير و المسكين العيش بها ، أم لا يستطيع ؛ المهم أنهم يديرون عجلة تشغيل مؤسساتهم ، و شركاتهم الإنشائية ، و شركات و مؤسسات تتبعها ، خدمية و تموينية ، تأثيثية و أمنية ، و شبكة إتصالات و مواصلات ، و إمداد المياه و تصريفها ، و كهرباء ، و غيرها كثير مما يخدم هذا الشأن من البنية التحتية و ما دونها .

قد يدفع إلى هذا التطوير حقيقة وجوب التطوير المدني من الإدارة السياسية ، و لكن غالباً ما يسير هذا التطوير بشكل و كيفية مبالغ في أمرها و زيادة عن حاجة الناس ، و هذا ما يجعل الأمر مفهوماً للمتتبع ، حين يعلم أن القادة السياسيين هم الملاك الحقيقيين لهذه المؤسسات الإنشائية العظمى .

ما يفعله أولئك الرأسماليون من زعماء الحمير الصفر ، أصحا ب الشركات الإنشائية في بلدانهم ، يقومون على فعله في بلدان الحمير السمر و السود وغيرهم مِن مَن

يسمونهم العالم الثالث . حيث يلزمون السياسيين بالبرامج الإنشائية و التطويرية المدنية ، بكيفية التطوير المدني في البلدان الغربية ، التي لا تتناسب مطلقاً مع بيئة و حضارة تلك البلدان ، مقابل أن تقدم لتلك البلدان قروضاً مالية سخية تغريها بتلك المشاريع .

فيقوم الحمير الصفر في بلدان الحمير السمر ببناء المدن و تنفيذ مشاريع البنية التحتية و غيرها ، و التي هي جديدة الشكل و المضمون على أصحاب الأرض ، و لا يعلمون خفاياها و أسرارها ، و لا كيفية صناعتها أو صيانتها ، لتبقى معادلة المنتج و المستهلك قائمة ، فتزداد تبعية الحمار الأسمر المستهلك للحمار الأصفر المنتج ، في جميع مناحي الحياة .

و يزداد جهل الحمير السمر فوق جهلهم و يزدادون تخلفاً ، و إذا ما قدر لهم يوماً تعلم كيفية صناعة المدن ، فلا يكون ذلك إلا بعد مضي عقوداً طويلة ، بعد أن يكون الحمير الصفر قد أكلوا الأخضر و اليابس من تلك البلدان .

و أعود فأقول هل لو كان المسلمون بفكرهم الإسلامي قادة الحضارة العالمية بفكر الإسلام ، هل كانوا فعلوا بتلك البلدان التي يدخلونها مثل أفاعيل الحمير الصفر تلك ؟

بالطبع الجواب بالنفي ، لأن الإسلام لا يجيز للمسلمين فعل ذلك بغيرهم .

قلت لحماري :

ها ، هل فهمت ما علاقة الإسلام بالصناعة و التطور العلمي ؟؟

سكت حماري قليلاً ثم طفق يقهقه ضاحكاً باعلى صوته ، قائلاً :

يا سيدي ، إني أضحك منك و من حسن ظنك بي ، و بالحمير ، فنحن لا نفهم هذا الذي تقول ، و من في ظنك ذاك الذي سيقرأ ما تكتب ؟
إنك تكتب كلاماً كبيراً على عقولنا ، و هذا ينبيء عن تواضعك و إحترامك لنا الغير مبرر .

قلت لحماري :
عجباً ، أولم تنصت لي و لحديثي ؟

قال :
لا ، بالطبع ، بل سمعت ما قلت ، فقد أصابني حديثك بالملل ، و كاد النعاس يغلبني ، و لكن عساك تعيد ما حدثتني به في وقت لاحق ، و لكن هذه المرة بإختصار .

**

عدت إلى نفسي أحادثها و الإحباط يكويني سائلاً إياها :
و لكن من أين لي أن أعرف ، إذا كان من أحدثه بحديث ينصت لي أم يسمع لي فقط ؟ ثم إنه مما يغيظني أن حماري يقر بحميرته ، إلى درجة أنه قد إستكثر على نفسه أن يلقي عليه أحد مثلي كلاماً راقياً ، و حقائق ثمينة ، لم يكن تحصيلها و لم يكن تعلمها إلا بعد التضحية بالغالي والثمين من المال و العمر ، و ها هي تقدم إليه على طبق من ذهب .

إذن لا بد أن يكون قد علم عن نفسه ، و عن الحمير أشياء لم أدركها بعد ، في تركيبتهم الذهنية و الفكرية ، و عن نفسياتهم و عقلياتهم .

أو أني أكون قد أدركت هذا و لكن لا أريد أن أصدق نفسي ، أو أصدق الواقع الذي أراه ، أو أصدق أن الإنحطاط و الجهل قد وصل إلى تلك الدرجات السحيقة.

******

الفصل الثامن

حماري
و
خلط الدين
بالسياسة

بادرني حماري بسؤال ، بعد إفتراقنا عدة أيام ، قائلاً :

يا سيدي ، لماذا تخلط الدين بالسياسة ؟

- سكت قليلاً ، و قد إدركت سريعاً أن هذه الألفاظ ، و طريقة إستخدامها بهذا الأسلوب ، ليست صنيع أفكار حماري ، فحماري ليس لديه وعي بما تحدث به ، و لو وعى ما قلته له في آخر لقاء لنا ، لما ألقى مثل هذا السؤال .

فرددت عليه بسؤال قائلاً :

و ما معنى الذي تقول ، خلط الدين بالسياسة ؟

سكت حماري قليلاً ، و كأنه أحرج من سؤالي ، ثم قال :

و ما يدريني معنى ذلك ؟

فقلت له :

و هل تنطق بما لا تعي ؟

قال حماري :

أنا سمعتها بهذه الكيفية على لسان أحد العقلاء ، و أحببت أن أعرف ما رأيك في هذا القول ، و كأني لمست فيه تهمة لأمثالك .

- أدركت من فوري أن حماري قد ردد حديثاً مما كنت أحدثه به عند بعضهم ، و لكن ربما بدون بيان صحيح ، فوجد أحد المفوهين أو المتفيهقين من الحمير

، قد رد عليه بذلك القول الذي أعجز حماري و كتم أنفاسه به ، فلم يجد منه مخرجاً ، ثم أتاني به .

قلت لحماري :

أنت لم تصدُقني القول ، فالذي حدثك عن خلط الدنيا بالسياسة ، لم يكن أحد العقلاء ، كما زعمت . أليس كذلك ؟

قال حماري :

لا تؤاخذني يا سيدي ، في الحقيقة لا أدري ، فقد اصبحت كثيراً ما ، لا أميز بين العقلاء و الحمير ، و خاصة هذه الأيام ، لأن كثيراً من الحمير أصبحوا يُلبسون أنفسهم حلل العقلاء تقليداً لهم ، و أصبحوا يتفوهون بألفاظ لا يفهمها كثير مثلي ، فنظنهم بذلك من العقلاء ، و ننخدع بهم .

و لكن يا سيدي كيف عرفت أنه ليس من العقلاء .

قلت لحماري :

أو لم أبين لك مراراً و تكراراً من هم العقلاء ؟ أولم أقل لك أن الشهادات العليا ، و الأحساب ، و الأنساب لا تغير من الحمار شيئاً ؟

و ألم أقل لك أن التفوّه بحديث لا يفهمه الناس لا يرقى بالحمار شيئاً ؟

و ألم أقل لك أيضاً أن مجرد ترديد كلام العقلاء ، لا يرقى بالحمير أبداً ؟

و ألم أقل لك أيضاً أن المقياس للعقلاء هو الإيمان بالله (و ليس مجرد التصديق) الموافق للفطرة ، و إتباع كل ما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه و سلم ، و

تغيير كل المفاهيم عن الحياة ، و العادات و التقاليد ، و الأعراف و الأعمال و الأقوال بحسب هذا الإعتقاد ؟

و ألم أقل لك أن المقياس للحياة الراقية ، هو عندما تكون جميع الأنظمة السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و القضائية ، و غيرها ، حتى الصناعة والتجارة و المدنية بحسب ما أنزل الله ؟

ألم أقل لك ، أن ذلك هو المقياس للعقلاء ؟

قال حماري :
إذن فقل لي ما معنى خلط الدين بالسياسة ؟

قلت لحماري ، و قد إلتقطت أنفاسي إستعداداً لإجابتي :
لقد جاء يوماً الإسلام ، و كان ثم ما زال يحمل عقيدة معينة ، و ينبثق من هذه العقيدة ، بل و يرتبط بها إرتباطاً كلياً نظام معين ، ساد الناس جميعاً ، مسلمين و غير مسلمين ، و قد غيّر كل مفاهيم الحياة و عاداتهم و تقاليدهم و أعرافهم و علاقاتهم و معاملاتهم . فكانوا قد أظهروا للعالم أجمع صورة خيالية من الحياة الراقية ، التي دفعت مئات الملايين منهم بأنفسهم ، و من خلال حكوماتهم ، أن يتبنوا هذه العقيدة و هذا النظام المرتبط به . أي يتبنوا هذا المبدأ الجديد (الإسلام) ، فإرتقى ملايين من الحمير إلى عقلاء . ثم إرتقت حياتهم إلى حياة لم يشهد لها مثيل في تاريخ البشرية أجمع .

فهال ذلك الحمير الصفر ، الذين أرادوا لأنفسهم الخير الذي عند المسلمين و أن يرتقوا مثلهم ، فبدلاً من أن يتبنوا ذلك الفكر الراقي ، و ذلك المبدأ بعقيدته و نظامه ،

هجم أغلبهم ، و كانوا كثير ، على تلك البلاد ، فقاموا يهدمون تلك الحياة الراقية حسداً من عند أنفسهم، و أصبحوا ينهبون ما أصبح في أيدي العقلاء من خير كثير ، و بقوا على محاولاتهم و فعالهم تلك قروناً من الزمان .

إلا أن بعضهم رأى أنه من الضرورة إقتباس كثير من ما عند العقلاء من علوم و فنون في الطب و الهندسة ، و من السياسة و الإدارة و الإقتصاد و القضاء و العلوم العسكرية و غيره كثير ، فإقتبسوا من نظام الإسلام الكثير ، مدعين فيما بعد أنه من صنيع أفكارهم ، و إبداعاتهم ، إلا أنهم جهلوا أن النظام الإسلامي نظام متكامل ، بل و مقيد بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ولذلك لم يزدهم بعض تبني الأفكار الإجتماعية و القضائية و غيرها من الأنظمة ، لم يزدهم ذلك إلا خبالاً .

و كان تبنّي بعض تلك القوانين الإسلامية من قبلهم بمثابة ترقيع للثوب المخرق ، الذي لم يزده الترقيع إلا تشويهاً ، مع إطالة عمر ذلك الثوب البالي .

و مع تلك المحاولات الفاشلة لهدم تلك الحياة الراقية التي عند العقلاء ، ظهر قساوستهم و رهبانهم مدعين نيابتهم عن الله في الأرض ، و أن الله يوحي إليهم الطريق المستقيم و الهداية ، و قاموا بتقليد الإسلام و المسلمين ، و أرادوا الإتيان بمثل ما في الإسلام من نظام سياسي و إجتماعي و إقتصادي ، ثم أتوا بإفك عظيم أن قاموا بوضع أنظمة من عند أنفسهم ، وفرضوا عليها قدسية وجوب إتباعها ، كون أنهم نواب الله في أرضه ، آمرين الناس بإتباع ما جاؤوا به ، فكان ذلك بمثابة كارثة مهينة مفسدة مدمرة لإقتصادهم و سياستهم و حياتهم الإجتماعية و الخلقية ، بعد أن حالت السيادة لرجال الكنيسة على الناس ، و بقي السلطان فقط للملوك و القياصرة على الناس .

ثم جاء من الحمير الصفر حمير مفكرون و أذكياء ، بعد قرون من الظلام و الإنحطاط و التخلف ، رافضين سلطة الملوك و القياصرة ، و رافضين سيادة رجال الكنيسة الأدعياء ، بل و رافضين هذه القسمة التي سحقت الناس و الخير و الإستقرار و النهوض ، و كان كارثة على أصحابه و أتباعه ، و على مذاهبه ، و على الناس أجمعين ، فقام هؤلاء المفكرون يطالبون بنبذ الدين كاملاً ، أو كحل وسط ، إقصائه عن السياسة أو واقع الحياة .

فكانت النقمة منصبة على الدين ناهيك عن أصحابه ، و قد كانوا على صواب ، من حيث أن الأنظمة التي كانت تدعيها الكنيسة كانت أنظمة من صنع البشر و ليست من صنع الله عز و جل ، و ما هو من صنع البشر فهو قابل للتناقض و الإختلاف و التفاوت ، و إستمرت دعواهم حتى نجحت بعد حروب ضروس و صراعات دموية هائلة ، في فصل الدين عن الواقع الفعلي في حياة الناس ، أي في فصل الدين عن السياسة ، و إقصاء رجال الدين عن الشؤون السياسية .

و قد طغت دعوة فصل الدين عن السياسة فوق كل الدعوات ، و كانت هي و ما زالت السائدة عندهم ، و هي عقيدتهم ، و آلت وضع الدساتير مرة أخرى للبشر كما كانت عند رجال الكنيسة ، إلا أن وضعها هذه المرة أخذ صورة متطورة ، أن شارك هؤلاء المفكرون و السياسيون شعوبهم في وضع الدساتير .

إلا أنهم لم ينقلوا حياتهم من الخبال إلا إلى خبال مثله ، و لم يرقوا بأنفسهم من حمير جهلاء ، إلا إلى حمير مثقفين و صناعيين ، بعيداً كل البعد عن العقلاء .

و ظن الحمير الصفر أن حياتهم قد رقيت ، عندما رأوا أن مدنيتهم و صناعاتهم قد أخذت مظهراً بهيجاً فاتناً ، و كفيلة أن تُشبع غرائزهم و حاجاتهم العضوية ، بل و

يزيد . ثم كانت الحربين العالميتين التي عبرت بشكل صارخ عن هذه النهضة اللعينة ، و كشفت عورتها ، نهضة فصل الدين عن الحياة ، التي نبذت أي فكرة عن الدين ، أو من الدين ، أو لها علاقة بالدين ، حتى و قد أطاحوا بدولة الإسلام العلية (العثمانية) ، التي كانت تمسك بزمام الخير على الأرض ، لتكون السيادة للشيطان على الأرض منفردة .

و بالرغم من ذلك ، و بالرغم أنهم كانوا مدركين أن قيام تلك المدنية ، و ذلك الثراء المادي هو على أكتاف الحمير السمر و أموالهم و لحومهم ، أي على إستغلال ثرواتهم ، قاموا خادعين و منخدعين لذلك الظن ، يدعون العالم من الحمير السمر إلى فصل الدين عن السياسة أي (الحياة) بمفهوم الدين الذي يحملونه ، و بطريقة الفصل التي يقصدونها ، قاموا يدعونهم و يحذرونهم من الدين حتى لا يتخلفوا ، فينحطون كما حدث لهم (للحمير الصفر) في القرون الوسطى بسبب الدين .

و بالرغم من هذه المغالطة الواضحة التي تجد لها ألف جواب ، وجدوا من الحمير السمر المثقفين و أصحاب الشهادات العليا أذناً صاغية لهم ، فقام الأخيرون بتبني هذه الدعوى (خلط الدين بالسياسة) ، بل و قاموا يدعون لها ، بل و أقاموا على أساسها أحزاباً تعمل ، و تدعو بهذه الدعوى العلمانية ، المسماة بالديموقراطية .

الغريب في الأمر أن المسلمين في العصور الوسطى (بالتقويم الميلادي) كانوا يسودون العالم بمبدأ الإسلام و فكره الراقي، و بحياة راقية في الصناعة و الزراعة و الطب ، و المدنية التي سحرت قلوب و عقول الحمير الصفر آنذاك . أي أن المسلمين بإسلامهم كانوا الرائدين للنهضة ، سابقين من يدّعون قيادة العالم الآن بأكثر من سبعة قرون .

و المعلوم أن الحمير الصفر لم يصلوا إلى نهضتهم الحالية إلا بعدما إتخذوا القتل و النهب و الإغتصاب للبلدان الأخرى ، منهجاً لهم و سبيلاً لتحقيق غايتهم ، بل وهم على نفس المنهج ما زالوا سائرين و محافظين . فمنهج الإحتلال و الإستعمار ، عنصر أساسي و ضروري ، للمحافظة على النهضة الرأسمالية ، و إلا لن تتحقق على الإطلاق .

فكان لو أراد الحمير السمر اللاهثين اليوم وراء النهضة الغربية و أنظمتهم السياسية ، كون أن النظام الغربي في تصورهم يحقق النهضة الصناعية والتكنولوجيا و التقدم ، لو أرادوا تبني النظام الغربي الديموقراطي ، فكان لا بدّ لهم حتماً أن يجدوا حميراً آخرين يستعمرونهم ، و يحتلون بلدانهم ، و ينهبون ثرواتهم و دماءهم و عقولهم ، ليحققوا النهضة بالكيفية الغربية .

و لكن من أين للعالم من حمير آخرين ، غير الحمير الصفر المسيطرين ، و الحمير السمر الخاضعين ؟ ناهيك عن أن الحمير الصفر أنفسهم ، يتقاتلون و يتنافسون على السيطرة ، على كل حبة خردل موجودة في كل بلدان الحمير السمر ، و بلدانهم أنفسهم ؟

قلت لحماري :

ها ، هل فهمت ؟

قال حماري :

نعم ، نعم فهمت أن المبدأ هو عقيدة ينبثق عنها نظام ، من جنسها بالطبع ، يعني أن المبدأ ليس عقيدة فقط ، و إنما هو عقيدة و نظام .

قلت لحماري :

ما شاء الله يا حماري ، أحسنت ،، و لكني أسألك هل فهمت معنى خلط الدين بالسياسة ؟ و معنى فصل الدين عن السياسة ؟ و ما علاقة ذلك بالنهضة ؟

قال حماري على مضض :

نعم ، نعم فهمت .

- و عسى أن يكون حماري قد فهم ، و لو شيئاً يسيراً ، فقد أعجز حيلتي .

أكمل حماري حديثه قائلاً :

إنها فعلاً قصة مثيرة ، تلك التي قصصتها لي آنفاً ، عن الحمير الصفر و الكنيسة .

قلت لحماري :

ليس المهم هو القصص ، و لكن العبرة التي نحصدها من ورائها ، و الحقائق المرتبطة بها ، و كيف نحكم عليها و نقيّمها على مقياس المبدأ الذي نحمل ؟ و ياليت شعري ! ! .

قال حماري :

و هل عند كل أمة مبدأ يختلف عن غيرها من الأمم ؟ ،، عفواً سيدي ، نعم ، نعم ، لقد قلت لي ذلك بالطبع ، و لكن كم مبدأ موجود في العالم ؟

قلت :

مبدأ في الواقع ، أم في الخيال ، أم في الكتب ؟

قال :

و هل هناك في الواقع مباديء ، و في الخيال مباديء ، و في الكتب مباديء أخرى ؟ إنها تبدو كثيرة .

قلت لحماري :

لا ، إطمئن .

إنه لا يوجد في حقيقة الأمر أساساً إلا مبدءان يتصارعان منذ تاريخ البشرية .

أما أحدهما فهو المبدأ المصلحي ، و هي تسمية مجملة لكل الأفكار الوضعية ، و ما ينبثق عنها من أنظمة ، فإن كانت ملكية أو جمهورية أو أمبراطورية أم غيرها فإنها في واقعها صورة من صور المبدأ المصلحي ، الذي لا يؤمن إلا بشيء واحد ، هو المصلحة ، التي يُوظف من أجلها كل القوانين ، على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول ، و لذلك فإنه من الضروري لصاحب هذا المبدأ أن يتخذ جميع الأساليب ، و يبتكر ما شاء من الطرق ، لخدمة المصالح التي يبتغيها ، إبتداء من القوة العسكرية ، مروراً بجميع الوسائل السياسية ، و إنتهاء بجميع أنواع المكر والحيلة و الجريمة و الظلم ، و غير ذلك .

من الضروري لأصحاب هذا المبدأ أن لا يؤمنون بأي قيم روحية أو أخلاقية أو إنسانية ، إلا فيما لا يتعارض مع المصالح ، و هذا أصله في الواقع مصلحي ، و ليس للقيم فيها أي إعتبار . فالمصلحة هي الأصل و هي الفرع ، و فيها سعادة صاحب هذا المبدأ و فيها غايته كلها ، فرداً كان أم دولة .

أبرز ما تمخض عن هذا المبدأ المصلحي في القرنين الأخيرين كانا المبدئين اللعينين ، الرأسمالي ، و الإشتراكي الشيوعي .

أما المبدأ الآخر ، فهو الذي تكون الفكرة الأساسية له ، أي عقيدته ، هي الإيمان بالله ، و الإيمان بالأنبياء والرسل الذين أرسلوا من عند الله ، و أن الكتب التي أتى بها الرسل ، هي كتب سماوية من عند الله ، و هي ليست من عند البشر ، و أن النظام التي أتت به هذه الكتب إلى الناس ، هو النظام الذي يجب أن يُتبع .

و يجب الإيمان بأن العبادة هي الإتباع ، و أنه إذا أُتبع غير الله كانت العبادة لغير الله ، و ذلك يُعتبر خروجاً عن الدين .

لا يوجد من يمثل هذا المبدأ في الواقع ، أو في التاريخ القريب أو البعيد ، أعظم تمثيل ، إلا الإسلام ، و هو كعقيدة منزلة من عند الله ، بخلاف المبدأ المصلحي ، لا يقبل شيئاً أو أمراً يُتبع ، مالم يكن من عند الله ، أو من عند رسوله محمد صلى الله عليه و سلم .

و هو بخلاف المبدأ المصلحي ، لا يعترف بأي أمر ، ما لم يكن مقيداً بالقيم الروحية و الأخلاقية و الإنسانية أو بأحدها ، بالطريقة التي بيّنها لنا الله سبحانه و تعالى ، و رسوله محمد صلى الله علي وسلم .

و مبدأ الإيمان بالله لا يمكن تحقيقه ، أو تحقيق سيادته في واقع الحياة ، إلا عن طريق سلطان يقيمه و يحميه و ينشره ، شأنه شأن أي فكر في الحياة ، و إلا فإنه يندثر بذهاب من أتى على يديه من الأنبياء ، و هذا ما حصل للأديان السماوية السابقة ، و يتعرض لها الدين الإسلامي في الوقت الحاضر .

و لذلك فإن في واقع الحياة لا يوجد غير هذين المبدأين ، حيث تتمثل فيهما شروط المبدأ ، و هي عقيدة (فكر أساسي) ينبثق عنها نظام .

قال حماري :

و أي من هذين المبدأين موجود في الواقع ، و أي منهما موجود في الخيال ، أو في الكتب ؟

قلت لحماري و قد أعجبني حسن متابعته النادرة لما أحدثه به :

أما المبدأ الأول " المبدأ المصلحي " ، فهو الذي يسود الأرض اليوم ، منذ مائة عام منفرداً .

أما المبدأ الثاني فهو كما ذكرت لك متمثل في الإسلام منفرداً ، و ذلك لأن الأديان الأخرى لا تحمل نظاماً يسوس الناس أو يشكل حياتهم أو يؤثر فيها .
و في الحقيقة أن الإسلام كمبدأ غير موجود إلا في الكتب ، و ليس له على الكرة الأرضية أي واقع ملموس .

و هو موجود بعقيدته فقط في قلوب الناس ، و بشعائره التعبدية في دورهم ، و هو الذي أصبح شأنه شأن اليهودية و النصرانية في واقعهم ، حتى لقد أصبح له مثلهم رجال دين يباركون على الناس ، و يتبارك الناس بهم ، و بأشخاصهم ، و بفتاويهم ، حتى لقد إنصرف شيء من التقديس لهم من دون الله .

قال حماري :

إن معنى ما تقول ، أن لا وجود للحياة الراقية التي ذكرت لي آنفاً في أرض الواقع و في أيامنا هذه ؟ ! .

قلت لحماري و قد أدركت أنه يسعى ، لأن يوقعني في زاوية ضيقة حرجة ، كنت أحاول تجنبها ، لألا يكون لجاهل مثله سبيل عليّ ، و لكن لا فائدة ، فقد وقعت :

نعم ، حقيقة لم يعد له وجود في أرض الواقع هذه الأيام .

قال حماري من فوره :

إذن ، و إلام تدعوني أيامك كلها ؟ إلى خيال أو فلسفة موجودة في باطن الكتب فقط ؟ ، إذن فأنت تضيع وقتي و وقتك في حكاوى كثيرة ، لا أول لها و لا آخر .

إذن لو أسلمت نفسي لك و لما تقول و إتبعتك و تركت سبيلي ، لضاعت حقوقي ، و لتبددت أموالي ، و لأسرفت وقتي و جهدي .

إذن دعنا يا سيدي من هذا الهراء الذي تقول ، تباً لك ،، هل تظن أني إذا ما أردت سقفاً يؤويني و أبنائي ، أو إذا ما أردت مالاً يسترني و أبنائي ، أو إذا ما أردت حامياً يحميني ، أو أمناً يؤمّني ، أو إذا ما أردت المطالبة بحق من حقوقي ، أو أردت عزة تعزني ، أو كرامة تكرمني و أهلي ، أو غير ذلك من الحقوق الكثيرة العظيمة التي ذكرت ، هل تظن أني سأميل إلى الكتب أستجديها عزة و كرامة و أمناً ؟ أو أستغيثها مالاً ؟ ، و أقول لها إن سيدي يقول إن عندك العدل فأعدلي ، و عندك الكرامة فكرّمي ، و عندك العزة فأعِزّي ، و أنا حمار فارأفي بي ؟!

أو ربما تريدني أن أحمل تلك الكتب فوق ظهري إلى الفقراء و المساكين و إبن السبيل و الغارمين و في الرقاب و غيرهم مما سميت لي ، و أقول لهم خذوا فكلوا

منها ، أو أسكنوا فيها ، أو إقضوا دينكم بها ، أو دوا بها الرقاب ، أو جاهدوا بها في سبيل الله ؟ ، أو .... أو....؟

**

نعم كما توقعت ، لقد وجد الخبيث إليّ سبيلاً ، و كأنه لم يصدق بخبر ، و هذا شأنه شأن جلّ الحمير في الأدب و التأدب مع أنفسهم و مع غيرهم ، فلا يلبثون يتصيدون عند غيرهم الزلات و الأخطاء ، حتى ينقضّوا عليهم بألسنة حداد شحيحة على الخير ، و ليس لحسن الظن و الحلم أو التحلم ، أو تلمس الأعذار عندهم من سبيل .

و لا يلبث أحدهم يكابر في الحق بالباطل حتى لا يدع لأحدهم سبيل عليه ، فلا يرحمون محدثهم و لا يعذرونه ، و لا يتحرون جانب الصواب في رأيه ، لأن الحق هو الذي يصيب هواههم ، و سوء الظن هو صلب علاقاتهم ، و مقياس أحكامهم بغيرهم .

و قد ألتمس لحماري العذر في هجومه هذا ، فالحياة الراقية التي أدعوه إليها و أحدثه بها غير موجودة اليوم على أرض الواقع ، و الأدق قولاً أنها لم تعد الآن موجودة في الواقع العملي و الفعلي . و هذا ما أصاب حماري بصدمة عنيفة كنت أنا ضحيتها .

و لكن ما ذنبي أنا ، إذا كان الحمير أنفسهم قد أثروا أن يصبحوا حميراً ، بعد أن كانوا عقلاء ؟

و ما ذنبي إذا كانوا قد آثروا الحياة الذليلة عن الحياة الراقية ؟

و ما ذنبي إذا كانت كل طاقاتهم البشرية و المادية و الفكرية و العلمية كأمة ، قد توجهت لخدمة عدوهم ، و أصبح عدوهم من الحمير الصفر هو سيدهم ، و هو حاميهم و هو ربهم ، بل هو إلاههم الفعلي ؟

ألم يكن من الأجدر أن أقابل بالشكر ، و جل الإحترام ؟ أني أدعوه و قومه لحياة كريمة ، تخرجهم من عبادة أحد من العالمين إلى عبادة الله الواحد ، فيكونون أحراراً مطلقين ، و يعودون عقلاء بعدما نزلوا إلى درك الحيوان ؟

بل يريد الحمير أن يُرقى بهم إلى عقلاء و هم نائمون في بيوتهم ، على فرش من حرير . أو كما يفعلون على فرش بطائنها من دقيق الريش و ناعمه .

بل يريدون أن تُحمل إليهم الحياة الراقية على أطباق من الذهب و الفضة ، أو كما حُمل لسيدنا سليمان عرش بلقيس .

بل يريدون أن يكونوا مثل قوم موسى حينما دعاهم إلى الجهاد لخيرهم هم ، فقالوا له : إذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

و لكن لماذا تنكدني يا ترى مواقف الحمير هذه ، و أنا أعلم مسبقاً أنهم حمير ؟ و هل أسترجي من الحمير شيئاً غير هذا ؟ إذاً لما كانوا حميراً ، و لكني أنسى نفسي أحياناً فأستعجل الخير و أغفل الصبر .

و أنسى أحياناً أن تغيير العقول المُفسَدة ليس كتغيير العقول الفارغة ، و أن الحديث إلى الجاهل يتعذر ، و الجدال إليه عقيم .

لربما كان من الواجب أن أفهمه إبتداءً ، أن الحياة الإسلامية الراقية غير موجودة حاضراً ، و حديثي إليه عنها إنما هو ضمناً دعوته إليها ، و لكني لو أخبرته بهذا لما أصغى إلي لحظة واحدة .

فكأنه و غيره من الحمير لا يريدون أن يمس السكون اليومي الرتيب عندهم أو يكدّره أيّ طاريء أو تكليف ، حتى لو كان خيراً ، إلا أن تكون لقمة سائغة ميسورة الهضم .

و لكن ماذا عساني أن أجيبه لما قال ؟ إلا أني سأحاول أن أكون هادئاً غير محتد ، و لأحافظ على خدمة هدفي و كفى . أؤكد جازماً أنه سيجيبني بإستحالة هذا الأمر الذي أدعوه إليه ، و إستحالة إيجاده ، للهزيمة النفسية و الفكرية التي يعاني منها الحمير كافة ، و السمر منهم خاصة ، فلنرى .

****

الفصل التاسع

حماري
و
الحرية

قلت لحماري

تركت الحديث إلى حماري فترة لا أجرؤ على مبادءته بالحديث عما أود الحديث عنه ، و عن الحياة الراقية التي يخلقها المبدأ ، فهو يقف موقفاً رافضاً ، بل و عازماً على الرفض ، و قد عجزت حيلتي إلى هنا لأدفعه ، حتى و لو للقراءة فقط ، أو ألفت نظره للكتاب الذي يلازمني و أنا أقرأ .

و قد تكررت الحالة ، و تكرر المنظر و هو يُقدم علي و لا يراني إلا أقرأ منهمكاً في القراءة ، حتى إستثرت حفيظته .

فقال حماري :

ما هذا الذي تقرأ ؟ و مالي أراك لا تألوا جهداً على ترك هذا الكتاب ؟ ولا أرك إلا هالكاً و أنت عاكف عليه ؟

قلت لحماري و أنا مسرور بأني أصبت ما إبتغيت :

إنه عن المبدأ الذي أتحدث لك عنه مُفَسراً بفكره الراقي الصحيح ، خذ فأقرأ إن شئت قليلاً .

**

أخذ حماري الكتاب يقرؤه ، فقرأ النص به أمامي جهراً كأن كل كلمة مستقلة بذاتها ، لا يربطها بما قبلها أو بعدها من الكلمات شيئاً ، فلا يربط فعلاً بفاعله ، و لا فاعلاً بمفعوله في جملة مفيدة واحد ، و إن قرأها صحيحة مفهومة للسامع ، فلا تجدها مربوطة بغيرها من الجمل التي تؤدي بمجموعها فهماً متكاملاً عن الموضوع .

و قد أدركت حينها أن حماري ، على الرغم من شهادته الجامعية ، أنه لا يقرأ مطلقاً ، بل قد يقرأ ، و لكن من الصحف و المجلات ما تطرف منه و ما قصر ، و ما سهل فهمه من الكلمات الميسورة إستخدامها ، من الأحاديث العامة و قضاء الحاجات .

فقرأ و لم يستطع أن يأت بالمفهوم التي نقله الكاتب من خلال الكلمات ، لأنه لم يقرأها بسياقها الصحيح ، فلم يفهم ما قرأ ، و بالرغم من ذلك هز رأسه الكبير موحياً لي بأنه فهم ما قرأه .

ثم سألني قائلا :

و هل لأن يتعلم أحدهم المبدأ الذي تقول ، عليه أن يقرأ كل هذه الكتب السميكة المملة الشكل ، الخالية من الصور و الألوان ؟

قلت له و ياليته ينصت لما أقول :

إن المبدأ الإسلامي بعقيدته و نظامه علم ككل العلوم الدنيا كما تتعلمه بالتلقي ، تستطيع أن تتعلمه من الكتب ، إلا أن كونه مبدأ فهو يختلف عن العلوم الأخرى ، فقد يتعلمه أحد الحمير فلا يرقى به قيد أنملة ، بل قد يستغل تعلمه للفساد و الإفساد به ، و محاربته ، كما يفعل ذلك به الحمير الصفر .

و قد يتعلمه أحدهم حتى يزيد من ثقافته بما يتحدث به العقلاء ، فيماري به السفهاء ، أو يجاري به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إلى شخصه ، أو يجعل ذلك سبيلاً تؤهله العمل أو التجارة به .

قال حماري يستعجلني :

و أيهم إذن يرقى بتعلمه ؟

قلت :

بالطبع لا أحد من هؤلاء الحمير يستطيع أن يرقى بما تعلمه ، حتى و لو أصبح أعلم العالمين به .

قال حماري :

عجباً لما تقول .

قلت لحماري :

نعم هذه هي الحقيقة ، فالمبدأ الإسلامي لا يرقى بأحد من الحمير مالم يتبناه ، أي يؤمن به (ولا أقول يصدقه) ، و يؤمن كذلك بالنظام التى أتى به كاملاً ، بل و حتى يجعله موضع التطبيق و العمل ، بل و حتى يعمل بمقتضى الدعوة إليه و نشره ، و رفض ما سواه ، و محاربة من يحاربه ، و يعادي من يعاديه .

فإذا لم يتحقق الإيمان بعقيدته ، غاب التبني ، و لم يتحقق الإيمان بالنظام الذي أتى به ، و إذا تحقق الإيمان بعقيده ، و غاب التبني لها ، لبثت فلسفة معلقة في الهواء لا قيمة لها .

فإذا ما تُبنيت عقيدته ، و أُومن بنظامه ، و لكن لم يتم تبنيه ، فسيتبنى الإنسان حتماً نظاماً يخالفه ، كون أن الإنسان لا يسعه العيش بدون نظام ، و إذا ما فعل ذلك و تبنى نظاماً غير النظام الذي أتى به الإسلام ، فلن يتحقق الإسلام ، و يعتبر ما قام به في حكم الشرك .

و إذا ما أُومن بعقيدته و بنظامه " جدلاً " ، و لم يُتبنيا ، يصبح المبدأ فلسفة مطوية في الكتب ، أو في الأذهان ، ولا يكون له واقع البتة ، و ما الفلاسفة و المستشرقين ، و الجامعات القائمة على تدريس الإسلام إلا خير مثال على ما أقول .

و أعود فأذكرك بما حدثتك عنه سابقاً عن القراءة .

قال حماري :

و لكنك لم تحدثني كيف نتعلم المبدأ .

قلت لحماري :

خير طريقة لتعلم المبدأ ، بصفته عقيدة (فكر) و نظام ، هي طريقة التلقي ، فهي أساس تبادل العلم و نقله ، و أساس الإبداع و الفلسفة في تطويره ، أما القراءة فما هي إلا للإستزادة من المعلومات المرتبطة بالعلم المُتلقى ، حتى أنه قد يستغنى عنها في تعلم المبدأ إذا ما مورس التلقي بكيفية مكثفة و متقنة ، و ذلك لأن المبدأ بعقيدته و نظامه في حاجة إلى الجدال بالبراهين العقلية " الحكمة " ، التي تثبت صحة و حقيقة الفكر التي تحمله العقيدة ، ثم حقيقة و صحة النظام الذي ينبثق عنها .

فالجدال بالبراهين العقلية هو الأداة الوحيدة لتثبيت الحقائق الفكرية ، و ترفع عنها جميع الملابسات ، و تطهرها من جميع الشكوك ، و تنقيها و تصفيها من كل الأفكار الغامضة التي قد تشوب جوهرها .

و لذا يجب أن يكون هذا الجدال ميسراً و مطلقاً ، غير مقيد بأي قيود ، بل و أن يسمح بمجادلة كل الأفكار التي تخالف هذه العقيدة ، حتى يتبين أنه هو الحق ، و ليس في غيره حق .

غير أن التلقي يمكّن العالم و الدارس الوقوف على مسائل كثيرة لغوية و شرعية ، كالوقوف على الألفاظ بمعانيها اللغوية ، و معانيها الشرعية و كذا على مدلولاتها ، فالألفاظ الإسلامية لا يغني عنها ألفاظ أخرى لنقل أفكار الإسلام ، و توضيح فكرته .

و نلاحظ أن هذه الطبيعة الجدالية في مبدأ الإسلام ، تتضمن التحدي لأي عقيدة عقلية أخرى ، و تتضمن الإستعداد لدحض أي فكر مخالف لفكره ، و أن الإسلام هو طريق الحق الأوحد .

فحرية الجدال المطلقة في عقيدته هي حق كل إنسان في الحياة ، ليصل منها إلى الحقيقة التي سيصبغ حياته بها .

قال حماري مستبشراً :

إذن فإنه لا يتوجب على القراءة .

تبسمت و قلت :

نعم ، قد لا يتوجب عليك ، و لكن يتوجب عليك أن تتلقاه فتتعلمه ، فتبناه على بصيرة.

قال حماري :

يعجبني في حديثك أنك تؤمن بالديموقراطية ، و أنك تشجع الحرية و تقرّها .

قلت :

عجباً ، و هل قد ذكرت لك الديموقراطية ؟

قال :

حرية الجدال الذي ذكرت للتو ، هي من حرية الرأي الديموقراطية ، و هي التي تعجبني ، فهي شيء حسن .

قلت لحماري :

يا حماري ، يا حماري ، من قال لك أن الدعوة إلى الجدال هي من حرية الرأي الديموقراطية ، أو أنها ديموقراطية ؟

ألم أقل لك أن لا تردد ألفاظاً لا تعي معناها ، و لا تعي المفهوم الذي ترمي إليه ؟

قال :

المعذرة ، و لكن هذا ما يفهمه كل الحمير ، و يردده ذوي الشهادات العليا منا ، و لا أظنه إلا صحيحاً ، يا سيدي الحرية و الديموقراطية أصبحت مطلباً لكل العالم ، فما بالك تنكرها ؟

قلت :

مهلاً يا حماري ، ألم أقل لك أن أكثر الحمير السمر المثقفين أمسوا يرددون أي شيء يمليه عليهم الحمير الصفر ، مما فسد و صلح ؟ و مما صح معناه ، و مما جانب الصواب ؟

إن من الحمير الصفر أنفسهم الذين هم إبتدعوا الديموقراطية يجهل معناها ، و يجهل واقعها ، فمنهم من يؤولها بالحل الوسط و التعقل و التفهم ، و منهم من يؤولها بحرية الرأي ، و كل يؤولها على قدر فهمه و عقله تأويلاً يخالفها معنى و مفهوماً و واقعاً ، و سأفهمك معناها إن أردت .

قال حماري :

لا ، بل قل لي سريعاً أي شيء عنها ، و بإختصار .

قلت لحماري :

إن الديموقراطية هي نظام الحكم التشريعي في المبدأ الرأسمالي ، و اللفظة تعني بالعربية حكم الشعب ، أي أن يكون الشعب أو الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم القوانين التي تناسب أهواءهم ، في جميع الجوانب السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية ، بحيث أن لا يكون لله ، و لا لأحد من الناس لوحده سيادة فيها .

قال :

أوهذا الذي قلت يا سيدي هو الديموقراطية بحق ؟ أي هي شيء حسن إذن ! و لكنك لم تذكر لي شيئاً عن أنها هي الحرية ، أو ما إذا كان فيها حرية ، و لا أراك بذلك إلا أنك تخالف ما يفهم جميع الناس في العالم عنها ، أو ليس فيها حرية مطلقة ؟

قلت لحماري :

ليس لي شأن بما حاز على إعجاب الحمير ، أو بما يفهمه الحمير عن الديموقراطية ، و إن حدثتك ، فسأحدثك عن علاقة الحرية بالديموقراطية ، و ما علاقة الحرية بالإسلام .

قال حماري :

أوفي الإسلام حرية ؟ إني لا أرى أن فيه حرية ، و أني لا أرى فيه حرية قط ، و لا أرى بين الحمير أحدهم حراً قط ، أو يبوح برأيه قط . بل أرى أن الحمير الصفر هم أكثر الناس ديموقراطية ، و هم أحرار ، و يقولون ما يريدون .

قلت لحماري :

يجب أن تفرق بين شيئين إثنين ، و هو بين ما يفعله المسلمون ، أو المسمّوا مسلمين ، و بين ما يريده الإسلام و يطلبه . فإن أجبرك أحدهم على أن تكتم أنفاسك ، فهذا لا يعني أن الإسلام يطلب منك ذلك .

إن الحرية في المبدأ الإسلامي ، تعني لغة ، حسب المفهوم الإسلامي هو التحرر من العبودية ، أي أن الحرية نقيض العبودية .

و لتعلم يا حماري أن الحرية التي تتداولها الألسن في الوقت الحاضر هي تلك الحرية التي صنعها الحمير الصفر ، و أعطوا لها مفهوماً خاصاً بها يختلف تماماً عن مفهوم الحرية في اللغة العربية و الإسلام ، ثم نقلها عنهم ، كما هو معتاد في يومنا هذا ، الحمير السمر بما تحمله من مفهوم مخالف .

هذا المفهوم هو " التحلل من أي نظام أو قيود تقيد الأفعال " .

و لم ينقل الحمير السمر هذا المفهموم المخالف فقط ، بل تبنوا تلك اللفظة ، و تبنوا المفهوم الذي تحمل ، بل قاموا يطالبون بها عن عدم دراية و فهم لحقيقتها و واقعها ، تقليداً أعمى للحمير الصفر .

إن للحرية عند الحمير الصفر واقع معين ، و تاريخ ألزم ظهور فكرتها ، و ذلك عندما أفسد رجال الكنيسة في العصور الغربية الوسطى ، بسن القوانين المفسدة المدعاة أنها من عند الله ، أظهر ذلك فساداً إجتماعياً عارماً ، ما ترتب عليه ظهور ثورات فكرية تطالب بالتحرر من هذه القيود و القوانين الكنسية .

و عندما نجحت ثورة هؤلاء ، تقدموا بفكرة التحرر من قيود الكنيسة و مصائبها و فسادها ، و كذا التحرر من فكرة قوانينها و إتباع قوانينها ، لينسلخوا من قيود الكنيسة إلى رحابة الحرية .

فتحولوا من فساد رجال الكنيسة العظيم إلى فساد أعظم ، و مع ذلك كان نجاحهم بالتحرر من قيود الكنيسة نجاحاً نُصبت له الرايات ، و نُحتت له التماثيل ، حتى أصبحت الحرية عمود الأساس الرئيسي ، للنظم الغربية الحديثة .

بل أصبحت الحرية شعاراً مخيفاً و مرعباً ، يُرفع في وجه كل من يتجرأ و يريد أن يضع قانوناً ، يرى فيه الحمير الصفر تقييداً لأفعال و تصرفات يحبونها .

بل إن الحرية تضم تحت لوائها كل أنواع الحريات ، كحرية العقيدة ، و الحرية الشخصية ، و حرية الرأي ، و الحرية الملكية .

فحرية العقيدة تعطي الإنسان المنتمي لهذا الفكر حرية القرار الإيمان بالله ، أو بالشمس ، أو بالقمر ، أو بالمطر ، أو بأي شيء يريد ، أو حتى عدم الإيمان بأي شيء ، فليس هو ملزم بشيء ، و لا فعله مقيد بأمر أو بنهي ، مما تستوجبه عليه مواقفه .

أما الحرية الشخصية فشأنها شأن غيرها من الحريات ، التي يتم تقديسها ، أن للإنسان حق التصرف المطلق بجسده ، و عقله ، و خُلُقه ، و مأكله و مشربه ، و عاداته ، و في كيفية إشباع غرائزه الفطرية ، لا يقيده في ذلك أمر أو نهي ، إلا ما فيه تعدياً على حريات الآخرين .

أما حرية الرأي :

فللإنسان كذلك الحق البوح بما يشتهي من الأقوال ، أو الآراء ، دون إلتزامه بأي منهج ، أو طريقة ، صحيحة أو باطلة ، و ليكن ذلك الرأي ما يكون ، فهو مطلق الحرية في رأيه لأي أمر و في أي مسألة بميزان حر ، و ليس بميزان محدد من عند الله ، أو من أحد من العالمين .

و كذا الحرية الملكية :

التي تطلق العنان للإنسان طريقة الكسب من أي وجه من وجوه الكسب . و طريقة الصرف كيمفما يشاء ، في أي وجه من وجوه الصرف ، لا يقيد فعله فيهما قيد من قيود النظام ، أو القيم ، أو الأفكار أيما كانت .

طبيعي أنه عندما بدأت هذه الفكرة ، فكرة الحرية (المطلقة)، قتل الناس بعضهم بعضاً ، و سرقوا و نهبوا و بخسوا بعضهم أشياء بعض ، و تاجروا بالنساء و الأطفال و الخمور ، و قامروا بالأموال ، و وطئوا الناس المحرمات (كالأم و الأخت) ، و إحتكر الأغنياء التجارة و الصناعة ، و إستعبدوا العمال ، فتسلط القوي على الضعيف و الغني على الفقير .

فتحللت المنظومة الإجتماعية أكثر ، فكره الناس بعضهم بعضاً ، و تفشت الأمراض النفسية و الجنسية ، و عانى ضعفاء الناس و عجائزهم الفقر و العزلة و القهر ، و عزّ الذليل بقوته و ماله ، و دُلّ العزيز ضعيف الجسم ، قليل المال .

ثم بعد دهر طويل من الفوضى ، لم يجد الحمير الصفر بداً من تقييد هذه الحرية المطلقة ، و ترقيع النظام ، خاصة بعدما تعرضت مصالحهم ، و بنوكهم و مؤسساتهم التجارية للخطر و السطو ، و لم يكن هذا التقييد إلا محدوداً .

و ما زال الحمير الصفر ، و لا يزالون يعانون من الكوارث المترتبة على تلك الحرية ، بالرغم من تقييدها ، بل و كل يوم تثمر لهم هذه الشجرة الخبيثة و لكل العالم ثمراً خبيثاً يحتارون في أمره ، و لا يقدرون على وأده ، و يتخبطون في ترقيع نظامهم .

ثم جاء الحمير السمر ، بعد كل هذا ، و بدلاً من أن يعودوا و يُعيدوا غرس شجرتهم الطيبة أصبحوا ، خاصة المثقفين منهم ، يطالبون ـ كما أملت عليهم ثقافتهم الغربية ـ بالحرية ، و ياليتهم يدرون ماهيتها .

قلت لحماري :

هل فهمت يا حماري شيئاً عن الحرية ؟

قال حماري :

نعم فهمت ، و لكن هذا يعني أن الإسلام ليس به حرية .

قلت لحماري :

في الإسلام أو في غيره إنه من الطبيعي عند كل إنسان في الحياة الدنيا أن يسلك سلوكاً يحقق من خلاله غايته في تحقيق مصالحه و إشباع غرائزه ، فإما أن يكون هذا

الإشباع و هذا السلوك منطلقاً من نظام وضعه الإنسان لنفسه ، أو يسير بنظام وضعه له غيره ، أو من خلال النظام المنزل من عند الله .

فإما أن يتبع الإنسان هواه ، و ذلك بإتباع النظام الذي رسمه لنفسه .

أو أن يتبع الإنسان هوى غيره من الناس ، مختاراً أو مجبراً ، و ذلك بإتباع النظام الذي رسمه له هذا أو ذاك .

أو أن يتبع الإنسان النظام الذي هو من عند الله ، الذي يتطلب الإيمان به ، فيتبعه مختاراً ، لا يتبع غيره .

هذا الإتباع يسمى عند العرب و كذا في الإسلام : العبادة ، التي هي نقيض الحرية ، فإذ ما إتبع الإنسان هوى نفسه ، كان عبداً لهواه ، و حراً من هوى غيره ، أي من عبادته ، و كذا حراً من عبادة الله .

أما إذا ما إتبع الإنسان نظاماً وضعه أحد المخلوقات ، يكون إذاً عبداً لغيره و حراً من أمر الله و عبوديته ، و حراً من هوى نفسه و عبوديتها .

أما إذا ما إتبع الإنسان النظام الذي أتى من عند الله ، كانت عبوديته له وحده ، الذي هو في حد ذاته تحرراً من عبودية الهوى ، و تحرراً من العبودية لأي كائن كان من الأحياء و المخلوقات .

فالحمير الصفر عبيداً لأنفسهم (شهواتهم و أهواؤهم)، و في ذات الوقت عبيداً لغيرهم من المخلوقات (الحكام) ، و هم أحرار من عبودية الله ، و بهذا الحال هم راضين و له قاصدين .

قال حماري :

و ما الفرق بين هذه المناحي الثلاثة ؟ ثم قل لي أخيراً ما علاقة الإسلام بالحرية ، خاصة حرية الرأي ، و حرية العقيدة ؟

قلت لحماري :

لا تستعجلني الإجابة على ما تريد فهمه ، لأنك لن تفهم الألفاظ و معانيها التي تفسر الأحاديث ، و المفاهيم المرتبطة بها ، إذا لم تنصت لي جيداً ، فالحمير قد أزاحوا عن جل الألفاظ المتعلقة بالفكر الإسلامي و عن جلّ الألفاظ المتعلقة به ، مفاهيمها الصحيحة التي أتت بها أصلاً ، و وضعوا لها مفاهيم مغايرة أدت إلى إنحراف اللغة إبتداءً ، إلى إنحراف الفهم الصحيح ، ثم إلى إنحراف الفكر و إنحراف حامليه إنتهاءً ، فقضي على ما تبقى من الحضارة الإسلامية ، حتى تشيّد سور عظيم لا يُقهر بين الحمير و نهضة الإسلام .

فالحرية قد إختلف مفهومها الإسلامي الأصلي ، الذي أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم ، و الجهاد قد إختلف مفهومه إلى الحرب الهمجية العدائية ، و إقتصر عند بعضهم على أنه الحرب الدفاعية ، و إختلف مفهوم الإسلام إلى أنه السلام ، أو الإستسلام لعوارض الحياة و مشاقها و للعدو القاهر .

و قد أضيف في نهاية المطاف للإسلام مفهوم جديد أنه الإرهاب على الإطلاق ، و هناك العديد من الألفاظ في جميع جوانب الحياة السياسية في الإقتصاد و الإجتماع و غيرها لم تسلم هي الأخرى من التحريف الغوي و التزوير .

أما ما هو الفرق بين المناحي الثلاثة في الإتباع ، أي العبادة ، التي ذكرتها لك آنفاً ، فذلك أن الإتباع الذي يتخذ الإنسان فيه هواه إلهاً له ، فهذا المنحى هو الذي يرفض الإنسان فيه جميع الأنظمة التي حوله أياً كان مصدرها ، الله أم البشر ، فيكون هواه هو الذي يقرر له كيفية إشباع غرائزه و حاجاته العضوية ، و علاقته بنفسه و بغيره ، هذه الصورة هي صورة فريدة لا تتمثل إلا في الشاذين من الناس كالمجرمين و المفسدين في الأرض ، الذين لا يبالون بقتل الناس أو هتك أعراضهم أو اموالهم ، و غاية الغايات عندهم هي أهواؤهم و مصالحهم الذاتية ، هذه الصورة غالباً ما تكون فردية ، و أحياناً أخرى تنظيمية (كالعصابات) ، و يبرز شذوذ أصحابها بروزاً واضحاً .

هذا هو المنحى الأول للحرية ، أما المنحى الثاني فهو عندما يتخذ الإنسان نظامه من عند غيره من البشر ، و ذلك لا يكون إلا من عند أصحاب السلطان ، فيتبع ما يأمرونه به و ينتهي عما ينهونه عنه ، و يروض المتبع فكره و نفسه و أهدافه بحسبها ، مرتضياً القبول و التسليم ، و خاصة إذا ما كانت أنظمة أصحاب السلطان هؤلاء تسد الجوع و تلبي الحاجات ، و كانت تكفل قدراً جيداً من الأمن و الإستقرار ، أو كانت تمتاز برفاهية العيش و رغده .

ينحو صاحب هذا الإتجاه إلى إعطاء الولاء كاملاً لأصحاب السلطان ، أياً كان ، فيكون صاحب السلطان هو السيد المعبود ، فبالتالي يصبح الناس عبيداً لأصحاب السلطان ، و أحراراً من هوى النفس و عبادتها ، و أحراراً من عبادة الله .

هذا المنحى يصنع من الطبيعي عادات و تقاليد و أعراف يسير الناس بحسبها بغض النظر عن صلاحها أو فسادها ، و يكون الذي يخرج عنها " خارجياً " أو مفسداً أو مجرماً في عرف السلطان و عرف الناس .

و كان رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه و سلم خير مثال مع قريش ، فقد كان في نظرهم " خارجياً " أو مفسداً (تعالى سيدنا عن ذلك) ، و لقد سموه و من إتبعه صابئون ، أي خارجون أو ناشزون .

يحدث دائما في هذين المنهجين الذي ذكرت أن يُمزج بينهما عند الناس ، فيشركون مع عبادة السلطان عبادة أنفسهم ، بالقدر الذي هم في حاجة إليه ، و بقدر الثغرات التي يلتمسونها في النظام و تسمح لهم بمخالفة النظام ، دون الوقوع في شَرَك عقوبة السلطان .

و لقد أثبت هذا ن المنحيان فشلهما الذريع ، و أثبتا أنهما وحلٌ نتن غاصت فيه شعوب الحمير الصفر على مر التاريخ ، و لا زالت تغوص فيه و تغيص شعوباً آخرين مثلها ، بل إن العالم اليوم كله أصبح في يومنا هذا يئن من وطأة هذين المنهجين .

و هذا أمر طبيعي منذ تاريخ البشرية أن لم يكن هناك من وَضَع للناس أحكاماً يسيرون بها ، و يتخذونها لصنع عاداتهم و تقاليدهم و أعرافهم ، إلا ضلوا و أضلوا كثيراً ، و باتوا شباعاً و جياعاً ، قد أكل بعضهم لحوم بعض ، أعزاء و أذلاء ، قد ظلم بعضهم بعضاً .

فلن تجد بين البشر جميعاً من قد أحاط علماً بحاجيات الناس كلهم ، بمختلف أعمارهم أو أحوالهم ، أو أزمانهم ، أو أماكنهم ، أو يكون قد أحاط بكيفية لإشباع حاجاتهم العضوية و غرائزهم الإنسانية ، و إشباع الميول الناتجة من خلالها ، إشباعاً لا ظلم فيه لأحد منهم على أحد ، فيعز بعضهم بذلة آخرين ، أو يذل بعضهم بعزة مثلهم .

و لن تجد من البشر من قد أحاط بنظام يؤتَى من خلاله بالرحمة و الحب ، و التعاطف و التراحم و التآخي و التكاتف و التسامح و التسالم و التخاضع و الترابط و التآلف بين الناس ، فيندحر الشر ، و يسمو الخير و يشيع .

قاطعني حماري قائلاً :

و أين الحرية إذن في المنحيين السابقين الذي ذكرت ؟ و أين دونها ؟

قلت لحماري :

إنك و قومك تتحررون من عبوديية إلهٍ ما ، ثم تسقطون في عبودية إلهٍ آخر .
فإما إنكم تعبدون أنفسكم و أهواءكم ، أو أنكم تعبدون غيركم و أهواء غيركم ، أو تمزجون بين العبادتين متخبطين ، لا إلى هؤلاء ، و لا إلى هؤلاء .

قال حماري :

والله لا أفهم شيئاً مما تقول ، و لم أعد أعرف أين الحرية من عدمها .

قلت لحماري :

إذن سأوجز لك قولي ،، يا حماري إن إتباعك لشيء ما ، هو عبادة له ، فإما ان تعبد نفسك و إما أن تعبد غيرك من الناس ، أو أن تعبد الله الواحد الأحد . عبادتك لله يا

حماري تحررك من عبودية كل المخلوقات حتى أنها تحررك من عبادة نفسك و هواها ، و من سلطان الهوى عليك .

و سأكمل لك حديثي ، عسى أن أنجح في تقريب فكرتي إليك ، فإن أنت أدركت المقارنات ، فقد تدرك حينها مبتغاك .

قلت مكملاً :

أما المنحى الثالث ، فهو الإخلاص لعبادة الله وحده ، أي إتباع كل ما أمر الله به و إجتناب كل ما نهى عنه ، في جميع مناحي الحياة السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و القضائية و الإدارية و الزراعية و التجارية ، و كذا في جميع مناحي الحياة المدنية و الأخلاقية و التربوية و الدعوية و التعليمية ، لا ينفصل ذلك الإخلاص عن الإيمان بالله قيد ذرة ، و لا عن عبادته بالصلاة و الصيام و الزكاة و الحج و النوافل قيد ذرة .

هذا المنحى يتفرد بصلاحه لكل المخلوقات ، و السر في ذلك هو صدق عقيدته ، و توافقها مع فطرة الإنسان الطبيعية التي تشعره بإنتمائه لخالق خلقه ، و أنه في الأصل مخلوق لخالق ، و شعوره بتنزه خالقه عن صفات المخلوقات و سموّه عن طبيعة عجزهم و محدوديتهم .

و السر في صدق هذا المنحى تفرده بالبراهين العقلية ، المستندة إلى الحواس ، و إلى حرية طرحها ، و مجادلة فكرتها ، بخلاف ما يحصل في مناحي الإتباع و العبادة الأخرى التي ذكرت ، و تحديها و تحدي عقيدتها و أنظمتها .

أما إذا عمي قلب أحدهم عن تلك العقيدة المشمسة النيرة ، فلينظر إلى الإثباتات التاريخية ، و الحضارة التي صنعتها على مر إثنتي عشر قرناً ، و قد كانت أطول حضارة عرفها التاريخ البشري ، و ساد لها كل العقلاء و الحمير على حد السواء .

لا يعني إستمرار تلك الحضارة لتلك القرون إلا لأنها أغشت كل من خضع للوائها ، أغشته بالعدل و الرحمة و الحب و الغنى ، و أغشت أهلها بالتراحم و التآخي و التواد و التواؤم و التعارف والتسالم و الترابط ، فكان الناس كلهم قائمين على تلك العقيدة ، و على النظام المنبثق منها ، و قائمين على نشرها ، و خدمتها بما يليق بها ، و كذا قائمين على سيادتها بالرغم من كل العداء المنظم و المستحكم و المسلط عليها و على من يحملها .

فهل تستوي عبادة النفس و الهوى ، أو عبادة العباد ، مع عبادة رب العباد ؟

قال حماري :

أفٍ لك سيدي و ما تقول و أفٍّ لإطالتك ، فأنا لم أرد أن أسمع ذلك كله ، حتى أني ما زلت لا أفهم كثيراً مما تقول ، فهل عدت إلى الحديث عن حرية الرأي و العقيدة بما يمليه عليك نظام الإسلام ؟

**

لقد صدق حماري ، فقد أطلت ، و لكن أجد نفسي لا أطيل في الحديث إلا على قدر جهل حماري ، و لا يسد جهله و الحمير الآخرين أضعاف أضعاف ما قلت ، و لقد تفاقم جهلهم لجهل بعلم قد جهلوه ، و أصبح جهلهم ظلمات فوق ظلمات ركب بعضها بعضاً .

و لن تُزال الظلمات دفعة واحدة ، بل تُزال واحدة تلو الواحدة ، و لن يتحقق ذلك إلا إذا أفسح المجال للمبدأ بالإنتشار ، و بالجدال و الدراسة ، و الدعوة المكثفة الدؤوبة الغير منقطعة ، حتى يصبح المبدأ كالشمس التي تضيء لكل المخلوقات ، الراضي منهم و الرافض ، الصغير منهم و الكبير ، المرأة منهم و الرجل .

و يخطيء من يظن أن دعوة المبدأ تنتشر بقراءة الكتب و النشرات ، بل لن تكون حقيقية و مؤثرة و مغيرة ، حتى يكون لها واقع تلمسه الأيدي ، و
تبصره الأبصار ، و تذوق حلاوته العقول و البطون و الأرواح ، هذا الواقع لو رآه حماري كما رآه أجداده العقلاء ، لما إحتجت لأن أتحدث إليه بشيء عنه ، و لما جادلني و أكثر جدالي .

و لن يكون لذلك المبدأ واقع إلا إذا عمل على إيجاده العقلاء ، و لن يوجدوه إلا إذا أحسن ثلة منهم فهمه و دراسته ، و طريقة إيجاده ، و كذلك لن يوجدوه إلا إذا كان هذا المبدأ مطلباً حقيقياً لمن يراد تطبيقه فيهم من الناس .

قلت لحماري :
ألم أقل لك بأنه يجب عليك أن تفهم أشياءً حتى تعي أخرى ؟ فعسى أن تكون فهمت و لو شيئاً يسيراً ، علك تعي ما سأقوله لك عن حرية الرأي .

إن الإسلام لا يقبل الظلم بأي صورة من الصور ، لا يقبله بين الناس على مختلف أعمارهم و درجاتهم و مواطنهم ، و لذلك فإن من الرأي ما أوجبه الإسلام على فعله إلزاماً ، بل و يعاقب تاركه .

هذا الرأي الإلزامي يُوظف في أحوال كثيرة منكرة ، في إطار إنكار المنكر ، كظلم الحاكم ، أو ظلم الناس بعضهم بعضاً ، أو عند مخالفة أحد الناس أو الحكام لأي حكم من أحكام الله بالإتباع أو الإنتهاء ، أو عند رؤية أي منكر لا يتعين على أحدهم تغييره بيده .

و إن من الرأي ما أندبه الإسلام ، أي أثاب فاعله و لم يعاقب تاركه .

هذا الرأي المندوب قوله أو فعله يوظف في أحوال ليس فيها منكر يستوجب تغييره ، و إنما في أحوال تربوية أو قول النصيحة و ما شابههما .

و إن من الرأي ما هو من المباح ، الذي ينطوي تحت رداء الدنيا و أحوالها و قضاء الحاجات و فنون الزراعة و الصناعة و الإدارة ، و المسامرات و غيرها .

و إن من الرأي ما هو محرم قوله ، كالقول الفاحش ، أو الرأي الداعي إلى الظلم ، أو قول السوء ، أو قول غير الحق ، أو قول النميمة أو الغيبة ، أو الرأي الداعي لسوء الظن ، أو كل رأي يدعو لمخالفة أمر الله ، أو يدعو لفعل نواهيه .

و إن من الرأي ما يُكرهه الإسلام ، كالرأي الذي يتدخل الإنسان به فيما لا يعنيه ، و كالنصيحة لغير طالبها ، أو في غير موضعها ، و غيره كثير .

و إن للرأي بما ذكرت ضوابط أخرى و بعض التفصيلات التي لا مجال لها هنا .

هذا يا حماري عن حرية الرأي كما يراها الإسلام ، و كما تراها فهي أوسع و أشمل و أنفع و أبر ، و أخير من حرية الرأي التي يدعو إليها الحمير الصفر ، التي لا تؤدي

إلا إلـى الفساد و الفجـور و الـسفور ، و لأن تكـون كلمـة الـهوى هـي العليـا و كلمـة الله هي السفلى (جل الله و علا) .

قال حماري :

واعجبي لما تقول ، أين نحن من ذلك ؟ فلا أرى أننا من ذلك في شيء .

قلت :

و هل أبقاكم حميراً إلا ذاك ؟!

****

الفصل العاشر

حماري و حرية العقيدة

قال حماري :

إذن فقل لي عن حرية العقيدة ، فيقال أن المبدأ الإسلامي يجبر الناس على عقيدته إجباراً بحد السيف ، و لولا السيف لما إنتشر الإسلام ، و هذا السبب نفسه الذي دعى الناس لأن يرتدوا فيما بعد .

**

سؤال حماري هذا ليس غريباً ، فالإعلام الذي يمسك زمام أمره الحمير الصفر قد صنع تصوراً معيناً عن الإسلام، و عن مبدأ الإسلام و فكره ، حتى عند الحمير السمر ، هذا التصور ذاته يُلمس فيه خبث و مكر عظيم ، و عداء لهذا المبدأ الطاهر .

أما كيف تبنى الحمير السمر نفس هذا التحريف ، فذلك يفتح آفاقاً واسعة من الأسئلة و التساؤلات .

إن من المصائب التي وقع فيها شعوب الحمير الصفر أنهم إتبعوا ما أملاه عليهم زعماؤهم من تصورات عن المباديء المختلفة ، و الشعوب و البلدان الأخرى ، فترى كل واحد من هؤلاء الزعماء ينقل إلى شعبه تصورات مغلوطة عن أي فكر خارج حدودهم ، حتى يخلي نفوس الناس و عقولهم من أي إتجاه فكري قد يضر بالسلطان ، أو وحدة الدولة الي يعيشون داخل حدودها .

بل و لم يكتفوا بذلك ، بل قفزوا خارج حدودهم للبلدان التي تحمل فكراً مغايراً لفكرهم ، فعملوا بقوة الإعلام و سلطانه في عقول أهل تلك البلدان بتغيير فكرهم ، موهمين

إياهم بأن الحمير الصفر هم سادة الأرض و قادتها و أصحاب الفكر القويم الراقي الذي ينهض بالأمم .

و لقد أوجدوا فيهم و منهم حميراً مثقفين يتغنون و يتباهون بمبدأ الحمير الصفر و بفكرهم ، تارك هؤلاء وراء ظهورهم مبدأهم الأصلي و فكرهم .

و لقد أعان على هذا الغزو السهل أن الحمير السمر أنفسهم جهلوا مبدأهم أساساً ، و جفَوْه فجفاهم ، حتى أصبحوا يتبنون كل فكرة تُملى عليهم من المباديء الأخرى ، و بذلك أمكنن للخائنين أن يُوضعوا في الإسلام ما يشاؤون ، و ما كان لهم أن ينجحوا في ذلك لو كان لحمير السمر حامي أو نصير .

أعود لحماري و لما سأل ، فالقول الذي يردده الأعداء و سرى على لسانه ، أن الإسلام إنتشر بحد السيف قول فيه من الخبث و الدهاء ما يدفع سامعها لأن ظاهرها و يخالف باطنها .

قلت لحماري :

إن الجيوش الإسلامية في الحقيقة لم تتحرك و لم تنتشر في العالم تحمل صحفاً أو نشرات مكتوبة أو كتباً تحملها إلى الناس تعرفهم فيها بالإسلام ، و لم تحمل الجيوش الإسلامية إليهم الوعاظ و رجال الدين ، بل زحفت بكل ما أمكن لها من قوة السلاح و الرجال في مظهر مهيب رهيب و مخيف إلى كافة أنحاء العالم ، و لم يكن مظهرهم وديعاً أو ذليلاً يستجدون السلام .

و على الرغم من ذلك فهم لم يرفعوا السيوف فوق رؤوس الناس أفراداً كانوا أم جماعات ، آمرينهم بالإسلام أو القتل ، بل إن موضع الأمر في الجهاد هو إزاحة الملوك و القياصرة الحكام ، المستعبدين للناس و الواقفين في وجه الدعوة .

فطبق أولئك الإسلام كنظام دولة يسوس الناس في حياتهم الإجتماعية ، و الإقتصادية و جميع جوانب الحياة الأخرى .

أي أن الجيوش الإسلامية أزاحت الحاجز الذي يحول بين الدين و فهمه و دراسته ، بل و العيش به ، و التعامل على أساس فكرته و نظامه ، في سبيل إرضاء الله سبحانه و تعالى ، حتى تكون العبودية لله وحده دون القياصرة و الملوك و الأمراء ، و هذا هو المنهج الجهادي في نشر الإسلام .

و ما قد حصل أن الناس عندما تعرفت على الإسلام من خلال أحكام شريعته ، و من خلال الحياة الإسلامية الراقية التي صنعها عندهم بعد الفتح ، دخلوا فيه أفواجاً برضاهم و إرادتهم و بكل عزيمة و صدق ، فهم قد رأوا شيئاً عجباً لم يسبق و أن قد رأوه من قبل مثله ، و لا آباؤهم ، و لا أجدادهم .

و لا يخفى على عاقل ما قد سبق قتال المسلمين للمتسلطين على رقاب الناس ، أن عرضوا عليهم أن يَحكموا بالإسلام بدون قتال ، أو أن يدفعوا الجزية ، فيكون للناس القدرة و الوقت ليتعرفوا فيه على الإسلام .

هذا و لم ينقل التاريخ و لا المؤرخون خبراً واحداً فيه أن قد ضُرب عنق أحدهم للدخول في الإسلام ، أو قد أجبر عليه .

فدخل الناس جميعاً في الدين عن بينة و برهان ، و جدال واسع و عميق .

و لا يخفى على المتبجحين من الحمير الصفر أو غيرهم ، الذين يلصقون تهم الهمجية أو الإرهاب بالإسلام ، أنهم هم الذين قاموا قبل مجيء الإسلام و بعد مجيئه بغزو البلدان الأخرى ، و إحتلالها ، و إرهابها ، و نهب ثرواتها ، و تدمير بنيتها الأساسية ، أو تجميد بنائه لتسود لهم .

و لم يفعلوا ذلك كما يفعل المسلمون ، لتحرير رقاب الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، بل لتحرير رقاب الناس من عبادة الله ، أو من عبادة ملوكهم " كما حصل في العراق " إلى عبادتهم هم ، ليجعلوا تلك البلدان مرتعاً خصباً للنهب و السلب ، و الإغتصاب و القرصنة ، و ليجعلوا شعوبها عبيداً ، لا يأكلون إلا مما تقدمه أيدي عدوهم ، و لا يلبسون إلا ما يلبسونهم ، و لا يصنعون إلا ما يصنعونه لهم ، و لا يدرسون إلا ما يدرسونهم ، و لا يطلبون العلم إلا من مناهلهم .

بخلاف المسلمين الذين فتحوا البلدان الأخرى ، فأعزوا أهلها ، و حرروهم من ذلّ الملوك و القياصرة ، فأعانوهم على الدنيا و على أنفسهم ، و أعانوهم على عمارة البلاد ، و محاربة الفقر و الظلم ، و على نشر العدل السماوي ، و تاركوا الناس

يعبدون ما يشاؤون مختارين ، كما تملي عليهم الفطرة و العقل السليم ، فدخلوا في الإسلام راغبين طائعين .

و لم يكن الولاة و الخلفاء عدواً مسلطاً ، و إنما كانوا رحمة للناس بما ينفذون من أحكام الله على أنفسهم و على غيرهم من الناس على حد السواء .

و بذا فهم لم يكونوا مستعبدين للناس و لرقابهم و أموالهم فينهبون البلاد و العباد ، و يعطون هذا و يحرمون ذاك ، أو يظلمون الضعيف و يكرمون القوي .

قال حماري :

كأنك تحدثني عن إسلام جديد .

قلت :

و لم ذاك ؟

قال :

لأني لم أسمع بمثل ما قلت قط ، في التلفاز أو الراديو ، و لا من أي أحد من الحمير المثقفين .

قلت لحماري :

أو هل ذاك إلا للإبقاء عليكم حميراً ؟ .

عزانا و عزاك يا حماري فيما تبقى من الكتب الصادقة التي لا يقرأها الحمير ، و التي لن تغير من الأمر شيئاً .

فقال حماري و هو يتلمس يأساً في عيناي :

أوَلم أقل لك يا سيدي دعك مما تفكر و تقول ، فلن ينفعك ذلك شيئاً ، ثم ألم تقل لي أن هؤلاء الحمير الصفر أعداء لنا ؟

و أن الجهاد و حمل الإسلام إليهم سينقذ شعوبهم و ينهض بهم و ببلادهم ، و قد ينفعهم هم قبل أن ينفع المسلمين أنفسهم ؟

فلم إذن يفتدي المسلمين بأموالهم و أبنائهم و أرواحهم في سبيل نفع الكافرين ، كما تقول ؟ ، و لم تريد أن تجبر الناس على الخير و هم له كارهون ؟ .

قلت لحماري :

إنني لست الذي يريد أن يحمل الإسلام إلى شعوب العدو ، بل الله ، هو الذي أراد و فرض علينا نحن المسلمين نشر الإسلام ، و حمله للناس ، لخيرنا و خيرهم ، و رحمة لنا و لهم .

و من قال لك يا حماري أن الأعداء كارهين للإسلام و الرحمة ، و للعدل و الحياة الراقية ؟

قد يكون ذلك صحيحاً في يومنا هذه ، بأنهم و كثير من الحمير السمر أصبحوا كارهين للإسلام ، و ذلك لأن الناس لا يفهمون الإسلام من خلال الكتب ، و لكن الإسلام كأي مبدأ آخر يُفهم من خلال تطبيقه ، و الواقع الذي يصنعه ، و الحضارة التي يبنيها ، فيراه و يلمسه الناس .

و لذا فقد كانت ديار غير المسلمين تستبشر خيراً ، عندما يعلمون بتوجه جيوش المسلمين إليهم ، لما يرونه من حضارة ، بلغت أعالي السماء في بلاد المسلمين ، و في كل البلدان التي دخلوها ، بل كانت فرق من غير المسلمين تعين جيوش المسلمين لفتح البلاد عندما يصلونهم .

فلم يكن يقف في وجه تلك الجيوش إلا أصحاب السلطان و أعوانهم و عسكرهم و الجهلاء من الناس ، و المكابرين على الحق منهم .

أما ما هي الحكمة من حمل الإسلام بالجهاد في سبيل الله ، و بغير الجهاد ؟ ، فذلك علمه عند الله أساساً ، حتى و لو علمنا بعضه من القرآن الكريم، أو بينه لنا حبيبنا المصطفى في سنته الشريفة .

حيث نعلم من الحِكَم ما كان من تحول الشعوب و القبائل إلى أمة واحدة و إلى أصحاب هوية واحدة ، و ما كان من إنقاذ الشعوب من الظلم و الفساد و الإقتتال و الإعتداء ، و الفقر و الجهل ، و يكون الدين كله لله ، و العبادة " الإتباع " له خالصة دون أحد من العباد ، فيعيش الناس أحراراً ، يعز عزيزهم " خيرهم " ، و يذل ذليلهم " سفيههم " ، و لا يعز ذليلهم و يذل عزيزهم .

فيسود الخير الذي أراده الله للأرض و الناس ، رغم أنوف المتسلطين و الظالمين و المتكبرين .

ثم إن الجهاد و حمل الإسلام إلى غير المسلمين ، فيه حماية للإسلام نفسه و بيضة المسلمين ، غير هناك من الحكم ما لا يعد و لا يحصى من خير و رحمة للمسلمين و الناس أجمعين .

اما الحروب الهمجية فهي تلك التي يقوم بها الحمير الصفر و غيرهم في حق الشعوب و الأمم الأخرى .

و أما الجهاد و الإسلام فليس هو دين النساء ، و تعدد الزوجات كما يفهمه ذكور الحمير الصفر و كثير من الحمير السمر ، و ليس هو دين قهر النساء و ضربهم و ظلمهم كما يفهمه إناث الحمير الصفر و كثير من إناث الحمير السمر ، و ليس هو دين الإعتكاف في المساجد كما يفهمه المستسلمون العمون عن حقيقة الإسلام و تشريعه .

و ليس دين الإسلام دين الصلاة الصيام و الزكاة و الحج مسلوخاً من حاكمية الله و تشريعه ، و سنة رسوله كما يفهمه الدراويش و المغفلون .

****

الفصل الحادى عشر

أنا و الحمير الأثرياء

كنت في يوم ما في مكان ما من بقاع الأرض واقفاً ، فمرّ بي مجموعة من الحمير السمر الأثرياء ، و دار بيني و بينهم حديث و جدال ، حيث كنت أحدثهم عن الفكر الراقي الذي يرقى به الحمير السمر و الصفر إلى عقلاء .

و أخذت أحدثهم مسهباً في الحديث عن الحياة الراقية ، و أعينهم ترمقني بنظرات لم أدرك معناها في حينها ، ثم تبع هذه النظرات إنكار لين على ما أقول ، تبعه بعد حين هجوم شرس و سباب و لعان ، كاد أن يصل إلى الضرب بالأيدي و الرفس بالحوافر ، و لكن الله سلم ، وحينها فهمت ما كانت تتحدث به عيونهم و ترمقني به نظراتهم .

و قد كان دافع هؤلاء الأثرياء إلى هذا أنهم كانوا يرون في أنفسهم أنهم هم العقلاء ، و أن كل من حولهم من الناس بما فيهم شخصي أنهم الحمير .

و متيقنين أن الحياة الراقية التي تحدثت عنها معهم هي تلك التي يعيشونها ، و أن ما أتحدث عنه إنما هي تلك الحياة الموجودة المتمثلة عندهم و في بلادهم ، و ليس هناك ضرورة للدعوة إليها بحكم وجودها و كفى .

و ياليت الحياة الراقية كانت موجودة عندهم ، أو هي متمثلة فيهم أو عندهم أو في أي بقاع الأرض ، لكنت أرحت نفسي ، و لما عنيت ، و لما كنت قد تحدثت معهم عنها أساساً إلا للإستئناس بذكرها .

الغريب في الأمر أن صفات الحمير الأصيلة كانت هي تلك التي إتصفوا بها ، و هي موجودة لديهم ، و لم يحصل أن رأيتها متأصلة عند حمير غيرهم كتأصلها فيهم .

تركت هؤلاء و إنسحبت غضبان أسفاً ، و طفقت أحادث نفسي أبحث لها عن عزاء أعزوها به ، فمشهد كالذي رأيت لم أواجهه من قبل ، و عدت أتذكر حماري المسكين ، و أتمتع بذكراه ، فهو الذي كان يصبر على كل ما أقوله له و يتصبر عليه بالمجاملة تارة ، و بالإنفعال اللطيف تارة أخرى ، و أغضب و يغضب هو أحياناً ، فنعود فنمسح ما كان بنا ببعض الأحاديث المؤنسة ، و رحت أرى في حماري كل خبيث جميلاً و حسناً ، و أذكر إساءته و ألتمس لها عذراً .

إن الكرام إذا صحبتهمُ أخفوا القبيح و أظهروا الحسن

و أنا في غمي ، و إذا بي بأحد المتعقلين يناديني من خلفي ، و قد كان ممن رأوني أحادث أولئك النفر الأثرياء ، و يقول لي :

- يا ذاك ، لقد رأيتك و أنت تحدث أولئك الحمير الأثرياء عن الفكر الراقي و الحياة الراقية .

قلت :

نعم ، نعم ، و كأني فرحت بمواسياً ألقاه فيواسيني و قد فعل .

فقال :

أولم تجد غير تلك الفئة من الناس الأثرياء تحدثهم ؟ أولا تعلم أنهم شبعى البطون ملأى الجفون ، فهم لهم أبصار لا يرون بها و آذان لا يسمعون بها ، و لا يعقلون .

إن شئت فحدث الفقراء منهم ، فقد تسعدهم بأحاديث في طياتها آمالُ إنقاذٍ لحالهم و نجاة من كربهم .

فقلت له شاكراً إياه و قد بلغ مني العزاء نفسي و لفت نظري لهذا الواقع الحقيقي :
و لكني أدعو كما علمني الله دون إستثناء غني أو فقير .

قال لي :
هذا شأنك ، و إنصرف .

**

إنصرفت عائداً أحدث نفسي ، و قد إستدركت أني أقف أمام عدة أصناف من الحمير ، الحمير الأثرياء ، فالحمير الفقراء و غيرهم من الضعفاء و متوسطي الحال ، و غيرهم من الجهلاء ، و هؤلاء جميعهم غالباً ما يقرون بحميرتهم و ، و يسمعون إن لم يستمعوا .

أما الحمير المثقفين و العلماء و ذوي الشهادات العليا ، ممن أصابهم كِبَرٌ يمنعهم من الحديث إلا لمن هم يحملون شهادات تضاهي شهاداتهم ، حتى و لو كانت في علم الموسيقى .

أما الحمير الأثرياء ، الذين قد أصابهم مكابرة و شمم ، إن تحدثوا لأحد فلا يقبلون بأقل من أن يكونوا هم المتحدثين ، و إن تجادلوا يعز عليهم كثيراً أن يكون غيرهم أقوى حجة منهم و أمضى رأياً ، و هؤلاء لا يصغون و لا يستمعون ، بل و لا يسمعون حتى ،، فلا يتخذون ممن حولهم من الحمير إلا آذاناً صاغية لهم ، أو من العقلاء إن إستطاعوا .

و إذا ما شعر أحد هؤلاء الفئات بالنقص الفكري ، تجد كل واحد منهم يتباهى بما عنده ، فتجد الجهلاء منهم مثلاً يتباهون بقوة عضلاتهم و قواهم الجسدية ، و تجد الحمير المثقفين و العلماء و أشباههم يتباهون بصولاتهم و جولاتهم في مجال أعمالهم ، أو بلغات أجنبية ، أو يتشدقون بأحاديث لا يفهمها غيرهم ممن حولهم .

أما الحمير الأثرياء فالمخارج لهم كثيرة أبرزها التباهي بالممتلكات و المشاريع التجارية و الأعمال التنافسية ، و غالباً ما يضاف إليها التباهي بالإنتماء للمجتمعات البرجوازية التي يغشون منتدياتها و الإفراط في الحديث عنها ، و حدث هنا و لا حرج .

و ليست تلك الإنحرافات السلوكية ممن ذكرت إلا جزء يسير من إنحرافات سلوكية عديدة في علاقاتهم الفردية أو الإجتماعية ، من خلال متابعتي سلوك حماري و الحمير الآخرين ، حيث التباين العجيب بين سلوك أثريائهم و فقرائهم ، و بين سلوك قوم و آخرين ، بالرغم من إنتمائهم لأرض واحدة و موطن واحد .

فبالرغم من هذا الإنتماء إلى مجتمع واحد و إنتمائهم إلى قرية واحدة ، أو حتى أسرة واحدة ، نجد هناك تبايناً كبيراً بين أفكارهم و سلوكياتهم ، على سبيل المثال للحصر بعض الحمير عندهم غيرة مفرطة على نسائهم بالرغم من إنحرافاتهم الجنسية المختلفة مع نساء آخرين ، و نجد آخرين منهم عنده دياثة مفرطة في شأن أعراضهم ، و آخرين بين هذا و ذاك في المدينة الواحدة و القرية الواحدة و الأسرة الواحدة .

أو نجد الروابط الأسرية عند بعضهم قوية إلى حد التكتل ، و نجدها عند بعضهم الأخر منحلة إلى حد التفرق ، و نجدها عند غيرهم بين هذه و تلك .

و يالهول التباين و الإختلاف في أمور التربية بين شخص و آخر ، و أسرة و أخرى ، و قوم و قوم . و كذا في العلاقات الشخصية و الزوجية و العملية و تبادل المصالح كإبرام العقود و الشراكات و العهود ، و الزواج و الطلاق و تبادل الحقوق .
كل تلك العلاقات تجدها متباينة و مختلفة من أفراد لآخرين ، و مجموعات و أخرى ، بدرجة مثيرة و ملفتة للنظر .

و لا بد لذلك من معرفة الأسباب وراء ذلك التركيب الإجتماعي و التربوي بتلك الصورة المضطربة و المتعددة الصور ، و معرفة العوامل الخفية وراء هذه التركيبة.

و لست هنا للتنظير الإجتماعي ، و المهم إنما هو تغيير واقع الحمير هذا بإخلاص ، يتطلب ذلك شيئاً من ربط هذه السلوكيات و الأعراف و التقاليد المخلبطة بالفكر الأساسي الذي صنع تلك المفاهيم و السلوكيات و العلاقات عندهم ، بل و ربطه بالسبب الي يدفعهم للإرتضاء بذلك الفكر و تبنيهم له .

فبصفتي من العقلاء ، و ليس بصفتي من العلماء أو المثقفين أو المفكرين الحمير ، وجب علي تغيير ذلك الفكر الأساسي بحسب الفكر الصحيح الذي أحمل و أؤمن بصحته و صدقه ، فكر العقلاء .

أما كيفية تغيير ذلك الفكر الأساسي إلى فكر آخر، فتلك هي المعضلة الكبرى التي يجب أن يعيها العقلاء . فالإخلاص وحده لا يكفي ، دون فهم الواقع و دراسته و فهم الأسس التي قام عليها ، و الأسباب و راء تبني فكر ما وراء هذا الواقع .

و لا تكفي دون الإحاطة بل و تبني الفكر الصحيح المراد إيجاده ، و إرتضاه و الإيمان به . كل ذلك لا يكفي إذا لم يُعرف كذلك كيفية تغيير ذلك الفكر .

فالمجتمع لا يكون مجتمعاً سويّاً حتى يرتبط أفراده بأنظمة يسيرون بها جميعاً ، بغض النظر هنا عن صلاحيتها أو فسادها .

و بطبيعة أي نظام كوني فهو لا بد أن يرتبط إرتباطاً لا ينفك بفكر أساسي عقائدي ، كالإيمان بالله و الحاكمية له ، أو كالإيمان بالمصلحة و الحاكمية لها .

ثم من خلال هذه الأنظمة مقيدةً بفكرها الأساسي تنشأ أفكار يتعارف الناس عليها ، و تصدقها مشاعرهم ، و تصبح بذلك عرفاً لهم يفرحون بقوامها و يغضبون لعدمها ، حتى يعتادون عليها قائمة ، فلا تسير الحياة إلا بحسبها ، و تكون هي عاداتهم . و يتقلدونها و يقلد صغيرهم كبيرهم فيها ، فتصبح هي تقاليدهم ، ثم يسمى هذا المجتمع بإسم عقيدته و نظامه مجتمعين .

و على هذا فلا نستطيع تسمية مجتمع الحمير الصفر مجتمعاً نصرانياً أو مسيحياً ، بالرغم من إعتناقهم الدين النصراني ، لأن النظام الذين يسيرون عليه لا ينبثق أصلاً من العقيدة النصرانية ، و إنما هو منبثق من العقيدة المصلحية " على أي حال لا يوجد في الدين النصراني نظام منبثق من عقيدتهم ، بل هناك وصايا فقط " .

و على نفس السياق لا نستطيع تسمية مجتمع الحمير السمر مجتمعاً إسلامياً ، بالرغم من إعتناقهم العقيدة الإسلامية ، لأنهم لا يسيرون بالنظام المنبثق من هذه العقيدة ، و إنما هو منبثق من العقيدة المصلحية .

و لو إفترضنا مجتمعاً ثالثاً ليس له عقيدة روحية ، و قد إتخذ نظام الإسلام نظاماً له ، لما يتأتى من خلال من خلاله من خير – و هذا مجرد إفتراض جدلي ليس له واقع – بالرغم من ذلك لا يسمى ذلك المجتمع مجتمعاً إسلامياً .

فالعادات و التقاليد و الأعراف لا يمكن لها أن تصبح إسلامية البتة إذا إفتقدت أحد الشرطين التاليين :

عقيدة ، و نظام ينبثق من هذه العقيدة .

و إذا وضعنا مجتمع الحمير الصفر تحت المجهر ، لوجدنا أن العقيدة النصرانية عند كثير منهم متبناة كنظرية فقط ، يُرجع إليها وقت الأزمات النفسية ، و عند الحاجة إلى تقديس ما هو فوق كل الأزمات كرجع غريزي .

و تبقى عقيدة الحمير الصفر (العقيدة المصلحية) هي العقيدة الحقة التي يؤمنون بها حقاً ، و تسمى بالرأسمالية ، و هي التي ينبثق عنها نظامهم و تتشكل بها حياتهم ، و هي التي إرتضوها ، و أقروها ، و لم يعترفوا بسواها ، فثي صلب حياتهم و عمادها . و هي التي تصنع لهم عاداتهم و تقاليدهم و الأعراف التي يتعارفون بحسبها ، و هي التي تقوم عليها نهضتهم الصناعية و العسكرية و التجارية والعسكرية و غيرها .

فلا يعجب سامع لأحد الحمير الصفر و هو يفول لأحد الإناث أنه قد تعرف بها حتى يشبع شهوته الجنسية معها ليلته أو نهاره ، و لا يعجب السامع حين ترد هي عليه أنها فعلت ذلك لنفس الغرض لا أكثر .

و لا يعجب سامع لأحدهم و هو يتمنن عل زوجه أنه دعى زوجه لطعام العشاء على حسابه الخاص .

فهذه السلوكيات لا تنطوي عندهم تحت لائحة المذمومات ، و إنما تحت لائحة السير الطبيعي المتعارف عليه بينهم .

و لا نستبعد بعض الإستثناءات في العطاء أو التضحية أو ما شابه هذه الفضائل التي قد تحصل فردياً ، في المجتمع الرأسمالي ، لأن الإنسان يميل ميلاً غريزياً إلى الرحمة و الحب و العاطفة في خضم تلك المصلحة المجردة المرعبة . و لكن تبقى في واقعها خروجاً عن القاعدة الأساسية و شذوذاً يثير العجب عندهم .

أما إذا وضعنا مجتمع الحمير السمر تحت المجهر ، لوجدناهم بأقليتهم يؤمنون بوجود الله إيماناً حقاً صادقاً ، و لوجدنا الباقين منهم تقف عقيدتهم عند التصديق بوجود الله فقط ، لا إيماناً به كما ينبغي .

و لكن هؤلاء و هؤلاء من المؤمنين و المصدقين ، يحملون عن غير علم إيماناً محرفاً عن حقيقته ، و حقيقة فكره و منهجه و واقعه .

فعقيدة الإسلام لا تكون هي إلا إذا آمن الناس بالله و رسوله و القرآن ، و ما جاء به من الغيبيات ، مقترناً ذلك بالنظام الذي جاء في إطار هذه الرسالة إقتران خلق الأحياء بالماء ، و كذلك لا إسلام أو عقيدة إسلامية بدون نظام ، أي بدون تشريع .

و عندما جاء الإستعمار لم يستطع أن يهدم في الناس إلا نظام الإسلام الحاكم ، و لم يقتل الناس على إيمانهم بالله أو تصديقهم بوجوده ، أو على الشعائر التعبدية التي يقومون بها من صلاة أو صوم أو حج أو زكاة .

و لذلك فقد إنتزع الإستعمار من المسلمين الماء من الأحياء ، فأصبحوا أمواتاً ، أو بمنظارنا هنا إنتزع حريتهم فأصبحوا عبيداً لغير الله ، أي حميراً .

هذا الواقع لمجتمع الحمير السمر قد انتج فكراً أساسياً (عقيدة) جديداً ، وهو الإيمان أو التصديق بوجود الله ، و لكن مع إنبثاق النظام من عقيدة أخرى هي العقيدة المصلحية ، و لذلك أصيب مجتمع الحمير السمر بنكسة نفسي و عقلية ، فإزدواجية شخصية مرعبة ، مكنت من حميرتهم و حافظت عليهم حميراً على مستوى عال من الحميرية.

فليسو هم الذين إعتنقوا العقيدة المصلحية بنظامها ، و حددت لهم مسيرة معينة ، فيها وحدة فكرية و سلوكية يرتضونها ، و ليسو هم الذين إتخذوا مبدأ الإسلام كاملاً بعقيدته و نظامه .

و بذلك تكونت عند مجتمع الحمير السمر عادات و تقاليد و أعراف مضطربة و مزدوجة و متضاربة ، أدت إلى التباين و الإختلاف الشديد في الفكر و السلوك من فرد لآخر ، و من أسرة لأخرى ، و من قوم لآخرين ، و من مدينة إلى أخرى ، حت لتجد الأحياء في المدينة الواحدة كل حيّ له عرف خاص به .

بل و أصبح مجتمع الحمير السمر أشبه ببرميل القمامة الذي يحتوي على أكثر من مائة صنف من أصناف المخلفات بأشكالها و ألوانها و طعومها ، و عصارتها النتنة .

بل و أصبح الحمير الصفر بوحدة عقيدتهم ، و وحدة نظامهم ، و وحدة فكرهم النسبي ينعمون بنهضة و رقي و أمن و سلام على قدره .

فلا يعجب سامع لحمار أسمر و هو يقسم بالله على شيء و هو كاذب ، و لا يعجب سامع لمقسم بالله على عهد أو وعد و لا يفي به ، و لا يعجب مستأمن لأحدهم قد أقسم على أمانته و هو يخون ما أستؤمن عليه ، و لا يعجب ناظر لحمار إتخذ مظهر التقى و الورع لتحقيق مصالحه ، و لا يعجب ناظر لفتيانهم و فتياتهم و هم يختلسون الفاحشة المنكرة لأنهم حُرموا منها بغياب نظام الإسلام ، و لا يعجب ناظرهم و هم قد بلغوا أعلى درجات الحسد و البغض و الظن السوء و النميمة ، وهم يصلون و يصومون ، و لا تعجب لأحدهم و هو يجاهر محاربة الإسلام نفاقاً لأنه لا يمتلك سبيلاً إلى المال غير هذا ، فيعتاش هو و أبناؤه بالدين .

ولا تعجب لمن ينغمس منهم في الشعائر التعبدية و النوافل إنغماساً ، و يترك مئات الآلاف من الأحكام المعطلة ، و لا يدعو لها ، بل و لا يرى نفسه مسؤولاً عنها .

و آخرين يغالون في جانب من الدين لدرجة أنهم يكادون يحرمون على أنفسهم الهواء و الماء ، و قد تركوا الدعوة إلى الشريعة .

و لا تعجب لأكثرهم بؤمنون بإنتهاء الأجل ، و في نفس الوقت لا يؤمنون بالرزق من عند الله ، أو القضاء و القدر ، أولا يعون مفهوم الهداية و التوكل على الله ، و الخلط هنا كثير .

و لا يعجب سامع لكثيرين من الحمير السمر و هم يتفاخرون بالأحساب و الأنساب ، و هي موضع إهتمامهم .

و لا يعجب ، و لا يعجب ، و لا يعجب .....

و لكن ماهي الأسباب التي دفعت الحمير السمر للإرتضاء بذلك الفكر ، وبهذا الحال و الأسباب بقبولهم تبنيه له ؟

لو قلنا أنهم إرتضوا إبتداءً ذلك الفكر ، وهم في عز و منعة و في أوج الحياة الراقية ، فقد أجحف في حقهم ، و لو قلت أنهم أجبروا عليه إجباراً فقد تكون هناك بعض المغالطة ، و لو قلت أن إهمال المبدأ الإسلامي بعقيدته و نظامه أدى تلقائياً إلى تحول المجتمع الإسلامي إلى غيره لكانت تلك معالطة أخرى ، و لكن الأمر معلوم أسبابه و تاريخه و قد أحاط به العقلاء خُبرا .

فالحقيقة أن التحول حصل من خلال الإحتمالات الثلاثة كلها مجتمعين . فهناك من الحمير من أعان بل و قاتل لهدم ذلك الصرح العظيم ، إما خيانة عن علم ، أو إرتزاقاً ، أو جهلاً مدقعاً ، أو إفتتاناً بنهضة الحمير الصفر الصناعية ، و قد أعان على هذا الهدم بعض أو كثير من الإهمال الإداري و رعاية شؤون الناس من قبل الحكام على أواخر عهد الحضارة الإسلامية ، منذ مائتي سنة أو أقل . مما أعطى الحمير الصفر و زعمائهم الفرصة الفريدة لتكالبهم على البلاد الإسلامية شرقاً و غرباً ، شمالاً و جنوباً .

ثم إرتضى ذلك الواقع المهين الحمير السمر ، فسكتوا و قعدوا عن الصراع ، بل و إرتضوا القعود و الراحة ، حتى بدأت سلسلة الإنتكاسات الفكرية و السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية ، و الأخلاقية ، و الزراعية و الصناعية .

و لم يبق جانب من جوانب الحياة إلا و أصيب بنكسة كما وصفت من قبل ، و أصبحوا حميراً على مستوى عال من الإنحطاط ، حتى أن المشاكل الحديثة أصبحت مشاكل متراكمة و متراكبة ، أي هي مشاكل لمشاكل منطلقة من مشاكل أساسية .

و قد أصبح طريق العودة طريقاً محفوفاً بالمخاطر ، أو كاد يصبح مستحيلاً ، فقد إستولت عليه وحوش كثيرة غيروا من ملامحه ، وزرعوه بالوحل و الشوك و الألغام . فكان لا بد للعقلاء أن يطهروا الطريق و يزيلوا و يبعدوا كل ما وضع فيه ، و يحاربوا الوحوش التي إستولت عليه حتى يعود العالم من خلال هذا الطريق إلى الحياة الراقية العادلة .

و لقد قل العقلاء و كثر الحمير الأقوياء ، بل و صاروا حميراً ذوي أنياب و مخالب قوية حادة . و إزداد العمل صعوبة صعوبة ، وإزداد تحدياً . و زاد الأمر تعقيداً أنك لم تعد تجد بين الحمير السمر من يتصف بالصفات الى قد تُعزى على "الرجولة" كالشهامة و الغيرة و النخوة و النجدة ، و الصدق و الأمانة و الثبات ، أو حفظ العهد و الوعد ، أو كرم الطباع .

و لكن أي رجولة تلك إذا كان هؤلاء قد تركوا المبدأ الذي يصنع أكثر من تلك الصفات و أكثر من تلك التي تُسمى الرجولة .

و لكن كما أسلفت آنفاً فلا بد من الرجوع إلى المبدأ بعقيدته و نظامه ، حتى يتسنى صنع الرجال العقلاء من جديد ، و حتى تنهض الأمة كاملة ، رجالها و نساؤها ، شبابها و شيوخها ، أبناؤها و بناتها . و حتى تُصنع العادات و التقاليد و الأعراف حسب المبدأ ، فتكون هناك وحدةٌ فكريةٌ عند جميع الناس ، تتبعها وحدة سلوكية يسير بها المجتمع بمختلف عناصره سير رجل واحد ، و يرون رأي رجل واحد ، فيُنبذ من

شذ ، و يُقوّم من نشز ، و تُهدم كل النزعات القومية و الوطنية المنحطة ، فيلتفت الناس إلى النهضة في جميع جوانبها ، تاركين وراءهم ما سفه عن بينة ، و ما سخف من الأمور عن بينة .

هذه الوحدة الفكرية هي سلاح الأمم العظيم ، و هي السلاح الذي لا يُهزم على الإطلاق ، و هي القوة المكينة ، و الطاقة الكامنة و العضلات المحركة ، و هي الدم في الجسم ، و الأفكار في العقل ، و الماء في الجسد ، و هي الحصن الحصين الذي لا تنفذ من خلاله الريح و لا العواصف ، و هي سكن الناس و أمنهم ، و راحة بالهم و طمأنينتهم ، و سلامة أنفسهم و عافيتهم ، و هي الشمس الدافئة و الغيث المغيث .

فكلما قويت هذه الوحدة الفكرية كانت أجدى نفعاً و أعظم أثراً على أهلها و على دولتهم ، و كانت رسالة أو مثلاً أعلى لكل البشر أجمعين . و على خلاف ذلك كلما ضعفت كانت وبالاً على أهلها ، و شراً مستطيراً عليهم ، و على دولتهم و حاضرهم و مستقبلهم ، و كانوا مثالاً يُستعاذ منه.

و لذلك فالوحدة الفكرية مقياس قوة الفكر و صدقه و صحته ، و صلاحه للإنسان ، بل و للحيوان و للأرض . أو على خلاف ذلك مقياساً على سفاهة الفكر ، أو ضعفه و عدم صلاحه .

عدت إلى حماري ، و قد هضمت الصدمة التي صُدمتها مع أولئك الحمير الأثرياء ، و قد كان عليّ فعلاً أن أتعرف على فئات الحمير المختلفة ، و أتعرف على مايدور في خلدهم ، و أتعرف على نفسياتهم ، و قد تبين لي جلياً أن المال يزيد العقلاء رقياً ، ويزيد الحمير إنحطاطاً ، فعاقل ذو مال و قوة خير من عاقل ضعيف . و حمار فقير أو ضعيف خير من حمار ذي مال و قوة .

فسأكافح في حماري المتواضع المعترف بحميرته و حميرة الباقين من الحمير ، علني أنجح في ترقيته إلى عاقل ، و عساني قد نجحت شيئاً ما ، فلأواصل سيري معه بالرغم من الإهزام الفكري و النفسي الذي يعاني منه هو و باقي الحمير الذي يشعرهم بأن لا فائدة و لا جدوى من تدارس المبدأ ، و لا فائدة حين فهمه و إدراكه ، بل إن إعادة المبدأ كما كان في واقع الحياة هو من المستحيلات ، إلا أن ينزل الله بنفسه (جل و علا) و يعيده ، إلى هذا الحد وصل الإنهزام الفكري عند الحمير السمر .

****

الفصل الثاني عشر

حماري
و
السياسة
و
الإقتصاد

قلت لحماري و أخبرته ما حدث لي مع الحمير الأثرياء .

قال حماري :
نعم ، إن هؤلاء الحمير الأثرياء هو أساس نكبتنا ، إني أكرههم .

قلت :
و أي نكبة هذه ؟

قال متململاً :
كونهم نهبوا الأموال كلها و أمسى الباقون فقراء ، لا شيء عندهم .

قلت لحماري و أنا أحدث نفسي ، فيما يقوم به الإنسان البليد من إلحاق فشله و إلصاقه بغيره ، حتى يجد لنفسه مخرجاً سهلاً يضفي فيه كوارث الأمة إليه ، ثم يجلس مستسلماً متفرجاً يرى أنه قد أعذر نفسه فيه :

و لكن الأثرياء لم ينهبوا أموال الفقراء ، بل هم يقومون بالتجارة و الصناعة و غيرها ، و الباب – كما يقال – مفتوح ليصبح غنياً .

*** و بعد بعض الجدال الذي تقصدته لأستثير التفكير عند حماري ، قال :**

ما هي العلاقة إذن بين المبدأ الإسلامي و الفقر ، إذا كانت بلاد كذا فقيرة أساساً ؟

قلت لحماري :

إن البلاد التي ذكرت و يشقها نهر عظيم من جنوبها إلى شمالها ، و الأخرى التي كانت سلة الغذاء ، و التي لا تغيب عنها الأمطار ، و التي جل أهلها يرزحون تحت فقر عظيم ، ليست بلاداً فقيرة ، بل أهلها هم الفقراء ، و لا بد أنك تلاحظ أن فيها قلة قليلة عندهم ذا غنى فاحش قد تشبع أموالهم كل أهل تلك البلاد قرناً من الزمان .

و لا يعني أن الأغنياء هؤلاء هم الذين نهبوا تلك الأموال من خزينة الدولة فحسب و حرموا باقي الناس ، و أفقروهم .

و لا يعني كذلك أن لو دفع أولئك الأغنياء أموالهم كلها إلى الفقراء ستحل المشكلة ، و ستغنى كل تلك البلاد .

و لا يعني أن حل تلك المشاكل و فقر الناس و البلاد ، يتم بالتوفير في الصرف و الأكل و الشرب ، أو كما سمعت أحد الحمير يقول أن ذلك يتم بالتقليل من إستهلاك السكر و ما شابه هذه المهاترات ، أو كما يدعي كثيرون أنها تتم بالصدقة ، أو بالجمعيات الخيرية الإنسانية ، أو كما تفعل الجمعيات التنصيرية التبشيرية في البلاد المُفقرة من أساليب الرعاية التموينية .

إن البلاد التي ذكرت ، لقد كانت منذ فجر التاريخ تغني أهلها و من جاورها من البلدان ، لا يخفى ذلك على عاقل و لا مجنون ، و من بعد أن دخلها الإستعمار آلت لما هي عليه الآن ، و بات أهلها ينامون ف يالمقابر و على أرصفة الطرق ، فهل تعلم ما هو السر يا حماري ؟

قال حماري :

و ماذا فعل الإستعمار فيها ؟ هل هو الذي نهب أموالها ؟

قلت لحماري :

إن السر الذي لم يعد سراً ، و عمي عن كل الحمير أن الإستعمار غير النظام الإقتصادي ، أو السياسة الإقتصادية الإسلامية التي سارت عليها تلك البلاد سابقاً ،، هل تعرف ما معنى السياسة الإقتصادية ؟

قال :

لم أعرف معنى السياسة ، حتى أعرف معنى الإقتصادية .

قلت لحماري :

يا حماري ،، إن السياسة هي رعاية الشؤون ، و السياسة الإقتصادية هي رعاية شؤون الناس المتعلقة بالأموال و الثروات ، في كيفية تملك المال و تنميته و إنفاقه و التصرف فيه ، و في كيفية توزيع الثروة على أفراد المجتمع ، و في مسائل كثيرة متعلقة بالزراعة و الصناعة و التجارة و العلاقات الدولية و المحلية التجارية ، أي إدارة كل شيء يتعلق بالمال .

قال حماري :

و هل الإسلام لديه سياسة إقتصادية ؟

قلت :

يستحيل لأي مبدأ أن لا يكون له سياسة إقتصادية تنطلق من وجهة نظره ، و ترعى شؤون الناس بها ، و من يجهل أن للإسلام سياسة إقتصادية خاصة به ؟ و قد أدار دنيا و المال و الأعمال ، و قاد مسيرة الإقتصاد العالمي أكثر من إثني عشر قرناً من الزمان .

قال حماري و هو متعجب لما قلت :

إذن فلا عجب أني و قومي حميراً ، إذا صح فعلاً ما تقول ، و أن السر الذي ذكرت هو : السياسة الإقتصادية .

قلت لحماري :

لا بأس من جهل أشياء تسعى جاهداً لتعلمها ، و لا بأس من جهل أمور ليس لك بها شأن مطلقاً ، و لكن البأس في جهلك بما يتعلق بمبدئك و بتاريخه و بمستقبله .

قال :

هل يعني أن السياسة الإقتصادية الإسلامية تستطيع أن تقضي على الفقر و بطالة الناس ، و القضاء على المجاعات بالرغم من أعداد السكان الهائلة ؟

قلت :

لو تضاعف عددهم إلى عشرة أضعاف عددهم فلن يكون هناك فقر أو مجاعات أو حتى بطالة عمالية .

قال حماري :

قل بالله عليك ، كيف يتم ذلك ، بالرغم أن جسمي قد إكتزنت أوداجه شحماً و لحماً ، و لا أرى حاجة لما تدعو .

- ضحكت كثيراً مما قال ، و كأني أدعوه إلى وليمة ليزداد أكلاً ، و يزداد جسمه شحماً و لحماً .

قلت لحماري :

أنا لن أقدر شرح السياسة الإقتصادية لك على قارعة الطريق ، بل إنها تحتاج إلى دراسة مكثفة ، و تتطلب منك بعض الجهد لقراءة الكتب التي تشرح و تفصل قواعدها و ملابساتها ، و علاقاتها بباقي السياسات ، و لكني سأذكر لك عموماً القواعد الرئيسية التي ترتكز إليها .

إن رعاية الشؤون الإقتصادية في الإسلام تدور حول محور واحد و هو ضمان تحقيق الإشباع لجميع الحاجات الأساسية لكل فرد إشباعاً كلياً، كالمسكن و الملبس و المأكل و المشرب ، و الزواج و الرعاية الطبية و المواصلات و الإتصالات ، و كذلك تمكين الإنسان من توفير الحاجات الكمالية .

إن ذلك لا يتم إلا بتمكين الفرد الواحد من الإنتاج و العمل ، بتوفير كل السبل له لذلك ، و تسخير الأرض للزراعة و المصانع للصناعة ، و غير ذلك مما يمكنه من الحصول على حاجاته الأساسية عن طريق العمل .

فإن لم يكن الفرد على ذلك قادراً ، كالصغير و السفيه و المجنون و العاجز و غيرهم ، يتولى أمر رعايته القريب فالأقرب ، فإن لم يكونوا على ذلك قادرين ، وجب على بيت المال توفير كل ذلك له حتى يقدر .

أما إن كان ممن تحتاجهم الأمة للعلم و التعليم ، وما شابهه مما ليس هو من طور الإنتاج المباشر المادي ، فتوفر للمعلم و المتعلم كل حاجاتهم الأساسية بما يتناسب مع متوسط العيش في المكان الذي يسكنون و زيادة .

و على هذا الأساس ، و لهذا الهدف تسخر كل الأجهزة و المؤسسات لتحقيق هذه الرعاية ، و لا يقال أن الدولة تعطي من ينام أو من لا يعمل مالاً ، بل إن الدولة تعاقب من لا يعمل ، أو يهمل ، أو يرفض العمل ، بل إن العمل واجب يُعاقب تاركه .

و لذلك فإن السياسة الإقتصادية تعمل لرفع مستوى المعيشة في البلاد ، مع ضمان إنتفاع كل فرد من هذا العيش .

قال حماري :

و لكن من أين ستوجد وظائف لملايين الجامعيين العاطلين عن العمل ؟ أو من أين ستوجد المال الذي يوفر كل الحاجات الأساسية لكل طلاب العلم الذين تفوق أعدادهم الملايين ؟ هل ستستدين من البنك الدولي ؟ كما يسمونه .

قلت لحماري :

لو تركت لك المجال للأسئلة لما هو موجود الآن في الواقع من كوارث ، و كيفية حلها لما إنتهينا أبداً ، و لكن سأجيبك على ما سألت :

فهل أن كانت دولة ما في حاجة إلى ألف خبير زراعي ، هل من العقل و حسن التخطيط أن تقوم بتعليم و تخريج عشرة آلاف منهم ؟

بالطبع لن تفعل ، و على هذا المقياس لن يكون هناك الملايين من الطلاب الأكلاء على بيت المال . بل إن هناك ميزان دقيق بين الإنتاج و الإستهلاك ، هذا الميزان يصنعه تمكين الناس من الأرض الزراعية و البوار ، و من الصناعة بكل أنواعها ، و من التجارة ، و تسخيرهم لما يخدم البلاد و الأمة .

هذا التمكين هو السر في تفجير عجلة الإنتاج ، و الإكتفاء الذاتي الغذائي و الصناعي و غيره ، و الحكمة في توزيع الثروة و الرعاية .

أما مسألة التدين من البنك الدولي ، و ما شابه ذلك ، فهذه خطوة تدميرية ، يقوم بها ن قد أغرق عجلة الإقتصاد في الوحل ، فيعمد إلى الدين ليحطم تلك العجلة حتى يخرجها من الوحل قطعة قطعة ، فيفسد التالي كما قد أفسد الأول فيعالج الداء بداء أشد منه .

قال حماري :
كأني فهمتك الآن ، أن التدين من البنك الدولي غير صحيح .

قلت لحماري :
إن التدين من البنك الدولي هو كأي فعل من شانه جعل الواقع مصدر التفكير ، و ليس الواقع موضع التفكير .

قال حماري :
أنا لا أنفك من فلسفة منك حتى تدخلني في غيرها ، لا أفهم ما تقول .

قلت لحماري :
بالطبع إن التدين منه غير صحيح ، تصور ماذا كانوا فاعلين لو لم يكن هنك بنكاً دولياً يدين ؟!

إذن لبحثوا عن أفكار جديدة تغير طبيعة التعامل مع السياسة الإقتصادية الموجودة فيغيرونها ، لأنها لم تثبت نجاحها . أليس كذلك ؟ .

قال :

نعم ، و هذا شيء طبيعي .

قلت :

الحمد لله ، هذا معناه جعل الواقع موضع التفكير ، و هذا هو الطريق الصواب .

أما إذا كانت تلك السياسة الإقتصادية أفقرت الناس ، فمن غير الصحيح لحل تلك المعضلة بمعضلة أخرى حتى تتراكم المعضلات ، فيزداد فقر البلاد فقراً بالدين . و هو عمى مركب ، فذلك الدين دين ربوي .

و حتى لو لم يكن ذلك ديناً ، و لكن عطاءً لوجه الله ، فذلك ايضاً لا يحل مشكلة فقر الناس ، فلا يمكن لدولة ما أن تعيش على مبدأ الإستجداء .

هذا الدين أو هذا الإستجداء ، يعني جعل الواقع مصدر التفكير ، أي أفكار يلزمك بها الواقع ، و يجبرك عليها ، فتزداد تخبطاً و تخلفاً .

قال حماري :

و لكن هناك بلدان ليس بها ثروات أرضية طبيعية تجعلها غنية .

قلت لحماري :

يا حماري ، هل يستوي الذي يجيد صناعة ما فيصنع بها ما ينفع بها نفسه و أهله ، والناس أجمعين ، و يعلمها غيره ، كالذي وجد كنزاً يصرفه على نفسه ، فيبقى غنياً هو و أهله حتى ينتهي ، أو يهلك ذلك المال ؟

طبعاً لا يستويان مثلاً .

فذلك معنى السياسة الإقتصادية الناجحة ، و الثروات الطبيعية ، و بدون شك أن وجود كليهما ، أي السياسة و المال ثروة لا تقدر بثمن إذا إجتمعا في آن واحد ، بالرغم من أن الثروة الحقيقية تكمن في السياسة الإقتصادية الناجحة لا غير .

قال حماري :

إن مما تقول أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .

قلت :

و إن هناك أشياء كثيرة أخرى ترتبط بما حدثتك ، و تتعلق بها يجب دراستها و فهمها ، و خاصة عند مقارنة السياسة الإقتصادية الإسلامية مع السياسة المطبقة حالياً في العالم .

قال حماري :

كل ما أقول لك شيئاً تقول لي يجب أن أقرأ كذا و كذا ، ألا يمكن الإستغناء عن هذه القراءة ؟ على أي حال إن ما تقول يعني أن كثيراً من دول الحمير الصفر يمتلكون السياسات الإقتصادية الناجحة ، و هي ليست إسلامية ، فهم لا يمتلكون كثيراً من الثروات الطبيعية مثلنا ، و يقومون بسياسات إنتاجية في الصناعة و الزراعة و غيرها أراها راقية ، حيث يعيشون حياة مترفة تفوق عشرات أو مئات المرات عن شعوب أخرى .

قلت لحماري :

إن السياسة الإقتصادية الأوروبية و الأمريكية ليست راقية ، و إنما هي سياسة حميرية متطورة ، فصناعاتهم و ترفهم قائم على أساسين :

الأول :

هو حصولهم على المواد الخام أي الثروات من بلاد الحمير السمر بالقوة بدون مقابل ، أو بأسعار زهيدة و بخسة تحت ضغط القوة أو التهديد .

و الثاني :

هو منع الحمير السمر من الصناعة ، كذلك بقوة السلطان بل و إجبارهم على فتح أسواقهم لمنتجاتهم (أي لمنتجات الحمير الصفر) الإستهلاكية و مشاريعهم الإنشائية في كل المجالات ، و كذا لمشاريعهم العسكرية الدفاعية ، و غير ذلك كثير .

فكون أن الحمير الصفر هم الصناعون ، و كون أن الحمير السمر هم المستهلكون ، يعني أن كل الأموال من جميع البلدان في عالم الحمير السمر تصب في خزانتهم (أي في خزانة الحمير الصفر) و تثري بلدانهم ثراءً فاحشاً ، ما الذي يغطي عيوب كل السياسة الإقتصادية و الإجتماعية المتبعة في بلدانهم .

أي أن السياسة الإقتصادية الغربية تعتمد إعتماداً كلياً على السيطرة على البلدان الأخرى ، و على ثرواته و على أسواقها ، و ليست هي سياسة إقتصادية حكيمة و راقية و متفوقة تنهض بالبلدان دون الإعتداء ، و دون الظلم و نهب ثروات البلدان الأخرى .

و هذا يفسر كون أحد بلدان الحمير السمر التي تشقها الأنهار ، و مساحتها و ثرواتها تقدر بمئات الأضعاف عن أحد بلدان الحمير الصفر الصغيرة جداً ، و التي تتساوى

معها في العدد السكاني ، لا عجب أن تراها تغوص في فقر مدقع ، مقارنة مع تلك البلاد الصغيرة الصفراء و هي تغوص في ثراء فاحش .

قال حماري و لم يبد أي تفاعل مع ما وصفت له آنفاً :
و ما تقول في قوانين العمل و العمال المطبقة حالياً اليست هي عادلة بما يكفي ؟

قلت :
إن كل ما تراه من معاملات و قوانين عمالية و عقود و نقابات و ما شابه ذلك في واقع السياسات الإقتصادية الحالية هو مخالف للصورة الحقيقية لنظام العمل و العمال في السياسة الإقتصادية الإسلامية .

و أكرر لك قولي مجدداً، أن ذلك يتطلب قراءة و دراسة حتى تفهمه و تعيه .

**
الغريب في الأمر أني كل ما أذكر أن هناك كتباً تتطلب القراءة يمتعض حماري ، و كأنه يتجرع دواءً يثير الغثيان .

فقد تعود حماري و الحمير عامة كره القراءة و العيش بدونها ، و إن الدماغ ليتعود الكسل و يتعود كذلك النشاط ، شأنه شأن العضلات التي تضمر لقلة الحركة بها ، فيكره صاحبها تحريكها لأن في حركتها شيء من التعب و المضايقة .

و إن الدماغ ليزداد كسلاً عندما يتعود تلقي المعلومات عن طريق البصر مثل ما هو حاصل من خلال التلفاز ، حيث يسترخي الدماغ و يرتاح ، بخلاف الإستماع إلى المذياع أو إلى محاضرات أو ندوات ، فالمستمع يتطلب ذهنه التيقظ و متابعة كل

كلمة و حرف ، حتى يعي ما يستمع إليه ، فيأخذ الدماغ بالتفاعل و النشاط كما يحدث في القراءة .

أما عند الحمير السمر فقد بلغ المصاب فيهم و في أدمغتهم مبلغاً عميقاً ، و لم يعد يتصور أغلب الحمير أن يمسكوا كتاباً تزيد عدد صفحاته المائة صفحة أو يزيد ، أو أن يخلُ الكتاب من بعض الصور الشيقة و الجذابة .

****

الفصل الثالث عشر

حماري و تعدد الزوجات

قلت لحماري

جاءني حماري مسروراً مستبشراً ، متزيناً بأبهى حلة قد رأيته فيها ، فسألته عن حاله ، فقال بوجه تعلوه الفرحة و الفخر و التباهي :

لقد تزوجت زوجة أخرى يا سيدي .

فقلت له بعد أن دعوت الله أن يبارك له ذلك :

و لكن لم تزوجت بزوجة أخرى ؟

قال حماري :

لأني لست سعيداً مع زوجتى الأولى ، و كذلك أحب أن أكثر من نسلي ، بالرغم من أبنائي السبعة ، و لنقل ما شاء الله .

قلت لحماري و قد صدمت من ذكره زوجه الأولى بسوء ، بالرغم من صبرها و كفاحها معه سنين طويلة :

أما زوجك الأولى ، فهذا شأنك ،، و لكنك ألم تدرك أنك غير سعيد مع زوجك إلا بعد مضي أكثر من عشرين سنة من عشرتك معها ؟ أوَكان هذا نفس شعورك منذ دخولك بها يوم تزوجتها ؟ ، و قضيت معها من السنين و الأيام و الليالي الملاح ما قضيت ، و أنجبت منها سبعة من الأبناء و البنات ؟

فلولا كنتَ كريماً و ذكرت محاسنها و أخفيت مساوءها عندي .

فتعدد الزوجات ليس مردّه قبح إحداهن أو حسن أخرى ، و هو تكليف عظيم مع ما يصطحبه من المتعة لكلي الطرفين و ليس للرجل وحده . و لا يخفى أن هناك لا يقل

عن سبعين دافعاً تدفع الرجل للزواج بأكثر من زوجة ، و غالباً ما يجتمع بعضها في آن واحد ، فيندفع إلى التعدد ، فلمَ تذكر زوجك بسوء خيبك الله ؟ .

قال حماري :

نعم ، نعم ، لم أقصد ، و إنما ذكرت ذلك من ضمن ما كنت أحس به من حاجة للزواج .

قلت لحماري :

و لقد رزقك الله بسبعة من الأبناء ، فلمَ ترى أنك في حاجة إلى أبناء أكثر ؟

قال حماري :

عجباً لك ، أوَهل على هذا أيضاً إعتراض ؟ ، فما أجمل من الأبناء و كثرتهم ، و قد وصى به الإسلام و بتعدد الزوجات ، و هذا منهج العقلاء الذي تذكرني به دوماً .

قلت :

يا سبحان الله ،، ألم يعجبك في منهج العقلاء و الإسلام إلا تعدد الزوجات و تكثير الأبناء ؟ ، يا حماري أليس أبناؤك أيضاً مثلك من الحمير ؟ ، أم أن من بينهم بعض العقلاء ؟ ، فلمَ تريد إذن أن تزيد في عددهم ؟ .

قال حماري :

لا ، ليس من بينهم أحد من العقلاء ، و لكن كيف أربيهم ليصبحوا من العقلاء ؟

قلت :

أوَلم أعلمك كثيراً ، و جهدت كثيراً في تعليمك لتصبح أنت من العقلاء ؟

قال حماري :

و لكن علمني كيف أربيهم ، على أن يصبحوا من العقلاء .

قلت حسناً ، و حدثته بدءاً من العقيدة الإسلامية و الشهادتين و مقتضاهما ، و أعدت له كثيراً مما حدثته عنه من قبل ، و هو ينصت و يجادل و يحاول أن يفهم ، كون أنه مهتم لأمر أبنائه ، فعندما فرغت من حديثي قال :

بهذه الطريقة تريدني أن أربيهم ؟؟ ، و الله إن هذا لأمر صعب ، و الله يا سيدي أنت لا تحب أن تعيش و ابناؤك كما يعيش الناس ، يا سيدي لقد خططت لأبنائي أن يعيشوا كغيرهم من الناس حياة طبيعية ، بدون عناء هذا الحمل الغليظ الذي يُكثر أعداءهم و يفصلهم عن المجتمع و الناس أجمعين ، يا سيدي أفٍ منك و من أحاديثك ، لقد ضيقت عليّ الدنيا .

يا سيدي لقد حدثتني أمداً طويلاً عن الإسلام ، بل و لم أحدثك قط عن شيء إلا و ربطته بالإسلام ، و إن في هذه الدنيا يا سيدي متع كثيرة و جميلة كالحب و النساء و الأموال و الأسفار و النزهة و الضحك و اللعب ، و أنا في الحقيقة أحد المخلوقات التي تحب ذلك كله ، و لا أرى الدين إلا أنه يكره ذلك كله ، و يعتبر أصحابه من الفساق أو الفاسدين .

ثم إني إذا تحدثت مع الحمير الآخرين (على لسانك) عن مثل ما تحدثني به نظروا إليّ كأني قادم من كوكب آخر ، و قد قيل لي مرة : أغرب بوجهك عنا يا رجل ، فقد أفسدت علينا أنسنا ، و توجه إلى المسجد خيراً لك ، فالدين في المسجد و ليس عندنا .

فأرجو يا سيدي أن تراجع أمرك ، فوالله لقد ضيقت على قلبي الدنيا الجميلة ، و حب النساء و الأبناء ، فذرني أنت و دينك هذا المتشدد ، فبت لا أفهم شيئاً .

**

لا عجب أن لا يفهم حماري شيئاً و يفكر هو و غيره بهذه الطريقة و ينظرون إلى الإسلام من هذه النافذة ، فهم كما ذكرت لم يتمكنوا يوماً من أن يتعرفوا على حقيقة و رحابة الحياة الإجتماعية الإسلامية ، و ما يعرفونه عن الإسلام هي الشعائر التعبدية و بعض الأفكار المتعلقة بها .

و ما يتذكرونه عن الماضي هو تاريخ جيل أو أكثر ممن كان قبلهم ، و ممن عندهم أخبارهم من الآباء أو الأجداد القريبين ، في مرحلة لم تكن الحياة الإسلامية موجودة أصلاً .

و كانت في مرحلة شيوع الفوضى و الإضطرابات و مرحلة ذهاب ريح المسلمين ، على إثر تمام هجوم الحمير الصفر على بلاد المسلمين ، و إنفلات حياتهم ، و زوال دولتهم المريضة العظمى .

و لا يزالون على إثر الغياب الدولي و الفكري الإسلامي يظنون أن الإسلام محله المسجد ، و أن لا شأن له في حياة الناس ، و أن من مظاهر التخلف أن نربط الإسلام بكل أمر و بكل فعل و كل سلوك ، و أن الإسلام هو شأن الزاهدين عن الدنيا و العابسين و الشرسين ، أو أن الإسلام لا يقر الضحك و المزاح و الحب العاطفي و مداعبة النساء و الإستمتاع بهن و معهن ، و لا يقر الأسفار و التنزه و الإستمتاع بالأموال ، و أن الإسلام لا يصح أن يتحدث به إلا ذوي اللحى ، أو حاملي الشهادات الجامعية لكليات الشريعة و الدراسات الإسلامية ، و على هذا الأساس أصدروا على

من يتحدث بإسم الإسلام ممن يظنون ، تسميات مشيخية و طبقية تعطي هؤلاء الحق في الحديث عن الإسلام دون سواهم من الناس .

و لا نعجب عندما يتبرأ أحد الحمير السمر من الإسلام أمام غيره من الحمير الصفر أو الملحدين عندما يعيرونهم بتعدد الزوجات ، كون أن تعدد الزوجات من التخلف الإجتماعي و مثار للمشاكل الإجتماعية كما يدعون ، و هو خلل واسع في نظام الإسلام ، أو إن لم يتبرأ هذا الحمار الأسمر ، المنتمي للمجتمع الذي يقر بتعدد الزوجات ، فستجده حتماً يحول أن يوجد مبررات عقلية واهية لهذا القرار الإلهي ، حتى لا يوصم بالتخلف على أقل تقدير .

و لا نعجب كذلك تحرج كثير من الحمير السمر ، أمام هجوم الحمير الصفر على بعض أحكام الإسلام ، و وصفها أنها همجية كالقصاص في القتلى ، أو قطع يد السارق ، أو رجم الزاني المحصن ، و غير ذلك كثير من الأحكام .

و لا نعجب الحمير السمر مفتونين بالحمير الصفر و بحضارتهم ، و يرونهم الأجدر بإعطاء الرأي فيما يتعلق بالإسلام و أحكامه ، فيطفقون يتبرأون من تلك الأحكام و يحاولون إيجاد المبررات لسبب نزولها ، كالقول أن تلك الأحكام كانت ضرورية في أحد الأزمان و لم يعد لها قيمة الآن ، أو أن النصوص مقيدة بسبب نزولها ، و هي الآن في إعتبار المنسوخ من الأحكام .

ثم إن الحمير السمر قاموا يحاولون الإيمان بصحة الإسلام بما يقدمه لهم الحمير الصفر من براهين علمية على صحة بعض الغيبيات الواردة في القرآن الكريم ، و ليس الإيمان بالله و بالكتاب كاملاً عن طريق البراهين العقلية .

أي حتى الإيمان بالله أو محاولة الإيمان بالله و بصحة الإسلام أعطيت قيادتها للحمير الصفر ، فما يملونه الحمير الصفر من أحاديث و براهين علمية صادقة أو كاذبة هو الذي له قدر في الميزان عندهم ، و قد أصبحوا سماعون لهم ، و لما يملونه عليهم من مواد و إكتشافات علمية بدعوى تقوية الإيمان بالله ، هذا الإيمان الذي لم يُبن أساساً في نفوسهم ، و ليس له واقع في عقولهم .

و قد وقع في هذا الفخ بعض العقلاء الجاهلين بحقيقة طريق الإيمان و ليس الحمير فقط .

و لا نعجب أن الحمير السمر قاموا ينحون مناحي الحمير الصفر في الإتجاه إلى الموسيقى و الرقص و التمثيل المحرم و الغناء و الرياضة ، و التسابق عليها ، ذلك لأنهم تبنوا مفهوم النجاح و التفوق الذي يؤمن به الحمير الصفر ، و هو الشهرة و المال ، حيث هما موضع الإحترام و التقديس ، حتى قام الحمير السمر فعلاً يقدسون المغنى و المغنيين و الممثلين و الممثلات و المشهورين من الرياضيين و أشباههم .

و لا نعجب أن مفهوم السعادة قد تبنوه هو الآخر كما يفهمه الحمير الصفر ، و هو السعي إلى تحقيق أكبر نصيب من المتع الجسدية التي لا تُحد أساساً بحدود ، و ليست هي في تحقيق القيم الروحية و الإنسانية و الأخلاقية من شيء .

و لذلك فإن حماري الذي قام يردد بعض المفاهيم الإسلامية بين قومه ، و هو نفسه لا يعي قواعدها و أهدافها ، رموه محدثيه عن قوس واحدة ، فهم في واد و الحياة الإسلامية في واد آخر ، و هو يتحدث معهم في شيء لا يدركونه .

و لذلك كثيراً ما يخطيء الحمير السمر الظن في كيفية التعامل مع الإسلام ، كالذي رأيته يوسع إبنه ضرباً و يقيده بالسلاسل و يسجنه حتى يرغمه على الصلاة ، و لم يعي أن الصلاة هي في واقعها سلوك مقيد بالعقيدة تقوده إلى هذا أو على ذلك السلوك ، و هي مفتاح الخير و مغلاق الشر .

و بما أمطره بهم الحمير الصفر من تصور عن الحياة فقد أصبح حال الشباب كإبن هذا الرجل الذي لا يصلي إلا مقيداً بالسلاسل .

و كما يقال فإن لكل شيء شيءٌ ، فالحديد لا يُصهره الثلج ، و الثلج لا يُذيبه التبريد ، و الماء لا يبخره التبريد ، و كذلك فإن السلوك لا تغيره العصا ، و لكن تسيره القاعدة الفكرية (العقيدة) .

قال حماري يوماً و قد نسي أو لم يفهم كثيراً مما حدثته عنه :
هل يتوجب على كل الحمير ليرتقوا فيصبحوا من العقلاء أن يعلموا و يحملوا شهادات مثلك ، أو هل كل العقلاء مثلك يحملون الشهادات العلمية التي تحملها أنت ؟

قلت لحماري و قد أدركت أنه لم يعرف بعد كيف يميز بين الحمير و العقلاء ، و متى يكون الإنسان حماراً و متى يكون عاقلاً ، و قد أدركت أن الحمير يفتنون ببريق و لمعان الشهادات العلمية ، و يفتنون بالمظاهر و المراكز الإدارية :

يا حماري إن العلم الذي أحمل و الشهادات ليس لها علاقة بتاتاً مع كوني عاقلاً ، بل إن بعض العقلاء ليقلّ علمهم بدرجات أو مراحل عن كثير من الحمير ، و قد شرحت الفرق بينهم لك ذلك مراراً و تكراراً ، و لذلك أقول لك : إن الحمار هو الذي لم يتخذ الإسلام ديناً بعقيدته و نظامه ، إما عناداً أو مكابرة أو تجاهلاً أو مصلحة ، أو خيانة ،

و هو الذي لم يعمل للدفاع عن هذا الدين و نشره ، فقد تجد عاقلاً لا يفقه كثيراً كيفية الصلاة ، و لكنك تجده من أعظم المجاهدين في سبيل الله ، أو تجده من خير المدافعين و المنافحين عن دين الإسلام و الدعوة إليه ، أو تجده قوياً على الحق ، و مخلصاً في أعماله و علاقاته ، و صادقاً في أداء أماناته ، إيماناً و إحتساباً للأجر من عنده .

و إذا ما إزداد علمه و إزدادت ثقافته أو تعلم صناعة أو حرفة ما ، يزداد فضله عند الله و ترتفع منزلته عنده .

و قد تجد حماراً عنده علماً واسعاً و ثقافة عالية ، و لكنه من أخون الخائنين للأمانة ، و أزهد الزاهدين عن الحق ، وأضل الضالين في تعاملاته و علاقاته ، و أكذب الكاذبين في أقواله ، لا يدفعه و لا يمنعه و لا يرضيه إلا مصلحته .

أو أنه يقر الظلم و الضلال و الإنحراف فعلاً و قولاً أو تقريراً بسكوته عنه .

قال حماري :
حسناً ، أو هل إذا فهمت ما قلته أنت آنفاً فدرسته ، هل أصبح حينها عاقلاً ؟

**

و أظن أن ذلك آتٍ من كون الحمير تفوق أمانيهم و طموحاتُهم قدراتِهم و هممهم و إستعداداتهم للبذل و العطاء و التضحية .

فيطفق يسأل و يكرر السؤال ، و أنا أجيب و أكرر الإجابة ، فيشعر بنشوة السمو في أفق الأماني العالية من خلال الحديث الراقي ، فيعيش أجواءها و يتمتع بهوائها ، جتى تنتهي الأحاديث ، فيعود بنفسه إلى عالم الواقع الذي لا يستطيع أن يتفاعل معه

فكراً ، و لا يؤثر فيه فعلاً ، لأنه في الأصل لا يحمل عقيدة هذه الأحاديث ، و لم يسبق له أن عمل بها ، بل و قد إعتاد الخمول و الكسل و كسب العيش السهل ، و إعتاد الحياة لذاته و غرائزه و حاجاته لا أكثر .

فليس هو الذي متبنياً فكراً من ورائه مطالب و مسؤوليات و تكاليف ، و ليس هو الذي مغيراً لسلوك قد إعتاد عليه ، و إعتاد الكسب عن طريقه ، حتى و لو كان ذلك هو الذي قد أبقاه في درك الحمير .

و إنه لا عجب أن يقوم أحدهم بصيام أو صلاة أو نسك حتى يشعر بالطمأنينة لذاتها ، كأداء أي عمل يُرضي فيه ضميره ، حتى و لو علم في ذاته أنه يخادع فيه نفسه ، فذلك أقل جهداً و كلفة من سبيل آخر فيه من الجهود و التبعات ما قد لا يحمد عقباه .

أو أن حماري لا يريد أن يرقى إلى درك العقلاء إلا لظنه أن ذلك أقصر الطرق للجاه و المال و المنصب ، بل و يتلمس بأسئلته إن كان في ذلك سبيل إليهم .

فلو كان غير ذلك لتغيرت طبيعة أسئلته من ماذا و لماذا ، إلى طبيعة الأسئلة المبتدئة بكيف ، ثم لتبنى شيئاً مما قلته له و حدثته عنه و لظهر ذلك على سلوكه ، و لو شيئاً يسيراً .

****

الفصل الرابع عشر

حماري و الأقمار الصناعية

قلت لحماري

إلى هنا لم أواجه حماري بأسئلة مباشرة ، خوفاً من أن يكون فيها شيئاً من العجلة للتأثير عليه و تغييره ، فيتخذ موقفاً مما أعلمه ، و لا يكون لي سبيل بعده إليه ، فلا يعود يستمع أو يتقبل شيئاً ، و لكن أظن أن الوقت حان لذلك فلأسألنه .

قلت لحماري :

إني أراك بتكرار أسئلتك راغب في أن تصبح من العقلاء ، و أرى أن هذا الأمر بات يشغلنك و لم تفصح لي بشيء ، فهل هناك صحة لما أقول ؟

قال حماري من فوره :

نعم ، نعم ، و لكني أخاف الحمير الصفر و زعماء الحمير السمر .

قلت مندهشاً :

و يحك ، وما شأن أولئك في ما أسألك عنه ؟

قال :

كيف يكون أولئك لا شأن لهم فيما تسألني عنه ؟ إنك تدعونني لأن أتحرر من أوامرهم و نواهيهم ، و أتبع آراءً أصولية أو كما تسميها عقلانية .

قلت :

و ليكن ذلك ، هذه إرادتك يا رجل ، ثم ما أدراهم عنك و أنت أحد عشرات الملايين أو مئاتهم من الناس ؟

قال :

لا ، بل سيعرفون ، إنهم يمتلكون أقماراً صناعية مسلطة ، و يمتلكون أدوات تجسس تكشف كل شيء ، و تعرف كل شيء عن الناس و أحوالهم و أفكارهم ، بل إني خائف أنهم يراقبوننا الآن للتوّ و يتنصتون على أحاديثنا .

**

وقفت أنظر إلى حماري في عينيه ، و إلى ملامح وجه علّه يكون مازحاً أو بما قال ساخراً ، أو على الأقل متسائلاً ، فكررت عليه قولي ، و كرر هو نفس قوله ، و إذا بي أجده جاداً يعني ما يقول ، و يؤمن بما يقصده .

فهو يظن حقيقة أن الحمير الصفر بأقمارهم الصناعية و أجهزة تجسسهم مطلعين على كل إنسان ، أفعاله و أقواله و تحركاته ، أو حتى ما يكنه في نفسه بالصوت و الصورة ، فلا يكاد يتحدث يحديث ، أو يعزم بعزيمة حتى يجد نفسه مكبلاً بالقيود من فوره .

فأنزلهم حماري منزلة الله " جل و علا " بأنهم (الحمير الصفر) يعلمون خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ، و أنهم ، و أنهم ،، محاولاً إقناعي أن ذلك حقيقة لا تخفى .

ثم تبين لي أنه و باقي الحمير السمر يحملون هذا الظن و ما شابهه و هو متداولٌ بينهم ، و متمثلٌ في عقولهم و قلوبهم .

أخذت أفكر ملياً و أتساءل ، أو هل بقي شيء لا يعاني منه الحمير السمر ، أو كان ينقصهم أن يصابوا برعب كهذا ، و هواجس كهذه ؟

إذ لم تعد القضية قضية خوف فحسب ، فالخوف فطري في الإنسان مقيد بغريزة البقاء ، و هو لجام الإنسان من أن يؤذي نفسه ، أو أن يتهور فيقتل نفسه عن غير علم ، و لكن هذا الخوف مرهون بما هو معلوم من الأذى المحتم وقوعه ، مثل الخوف من النار ، أو الخوف من الغرق لمن لا يعرف العوم ، أو الخوف من السقوط من علٍ ، أو الخوف من السم .

و يزداد خوف الإنسان زيادة عما هو من منطلق غريزي فيبدأ يتخوف من الأشياء المحتمل وقوعها ، كالخوف من العواقب المحتملة للقفز من علوّ ، أو من السرعة عند قيادة المركبات ، أو عواقب الإهمال الوظيفي ، أو العواقب المحتملة لقول كلمة الحق عند صاحب سلطان .

و ليس هذا الخوف بمذموم عند تلك الحدود ، بل قد يسمى حريصاً ، أو قد يسى حذراً ، و أحياناً أخرى محنكاً ، و ليس من لم يخف هنا متهوراً ، بل قد يكون في بعضها شجاعاً و مقداماً .

أما إذا إزداد خوف الإنسان عن درجة الخوف من العواقب المحتملة ، و تعداها إلى الخوف من العواقب المجهولة ، كالخوف من مجرد المشي في الطريق لعاقبة مجهولة من أن يعتدي عليه أحدهم ، أو أن يسقط على رأسه شيء من السماء ، أو أن يستنشق هواءً ملوثاً ، أو الخوف من ركوب الطائرة أو أي مركبة أخرى لألا تسقط أو تصطدم بشيء مجهول ، فيمتنع بدوره من الخروج إلى الشارع أو ركوب كذا أو فعل كذا .

أو يمتنع عن الزواج خوف الفشل ، أو يمتنع من الإنجاب خوفا من عقوق الأبناء إذا كبروا ، أو مجيء أطفال معوقين ، أو الخوف من حتمية البطش به لمجرد قول كلمة الحق عند أحدهم ، فيؤثر أن يرضى بالباطل و بالظلم .

لذا فإنه إن بلغ بالرجل الخوف هذا الحد سُمي هذا الخوف جبناً ، فالخوف من العواقب المجهولة و كأنها محتمة الوقوع ، هو خوف الجبان .

هذا الجبن هو درجة مرضيّة تصيب الإنسان أو الناس يعينها الجهل بواقع الأشياء ، كصاحبنا الذي يخاف من وجود الأقمار الصناعية تراقبه و تسهر على متابعته و ملاحقة أفكاره ، فهو يجهل واقع الأقمار الصناعية و قدراتها و محدودية عملها التي صنعت من أجله .

أو كالشعوب التي تسكت عن دولها أن لا تدخل في حرب مع عدوها و تبات مستسلمة له لأنه يمتلك قنابل ذرية ، جهلاً منهم بواقع الحرب و السياسة الحربية و العسكرية و غياب العقيدة العسكرية ، أو غياب الإرادة الحربية .

و لو جدلاً أنّا تركنا فكرة الحديث عن الإيمان بالله ، و تحدثنا بمنطق العقل و السنن الكونية و علم الحرب ، فالقنابل الذرية ليست هي التي تصنع النصر بالرغم من قدرتها التدميرية ، بخلاف الإدعاء الذي يحاول الحمير الصفر غسل أدمغة باقي الشعوب به ، أن مجرد إمتلاك القنبلة الذرية هو ميزان النصر ، و لو أن هذا مقام الحديث عنها لتحدثت عن ذلك بإسهاب ، و فيتنام و العراق خير دليل .

و لكن الأذكياء يستغلون جانب الجهل عن واقع الأشياء عند غيرهم ، فيوهمونهم بها لتحقيق أهدافٍ كثيرة لمصالحهم ، تحت طائل الرعب و الترهيب ، و لذا قد يعتقد

كافة الحمير السمر أن الحمير الصفر قد أصبحت لهم الهيمنة المطلقة على كل خفي و ظاهر ، كهيمنة الله عز وجل أو أشد سطوة ، فيقعدونهم في بيوتهم ، و يربطون على ألسنتهم من الرعب ، لا يحركون ساكناً إلا و هم يسبحون بحمد الحمير الصفر و بقوتهم و و سيطرتهم و و هيمنتهم ، و أنه لا غالب لهم ، لا بإذن الله و لا بغير إذنه " جل الله و علا عن ذلك علواً كبيراً " .

فالقضية إذن برمتها هي قضية الإنهزام العقلي و النفسي المبني على الخوف من المجهول ، أو الخوف من المعلوم المُحرّف ، أي المبني على "الجبن" لا غير . حتى لإن الحمير الصفر يخافون أن يأخذوا عهداً على أنفسهم ليصبحوا من العقلاء حتى لا تصيبهم لعنة الحمير الصفر ، و الواقع خير دليل في كيفية تعامل الحمير السمر مع الأوامر التي صدرت من الحمير الصفر فيما يتعلق بكافة أمور التعليم و التفكير ، و هدم كل النشاطات الخيرية و ما شابهها ، بالتسليم المطلق المذل الذليل ، مع غاية الرجاء برضاهم و عفوهم .

سألت حماري قائلاً :

لماذا لا يحب الحمير الصفر أن ترتقوا إلى عقلاء ؟

قال :

و لماذا تسألني عن شيء تعرف إجابته أنت ؟

قلت لحماري :

لم أسألك إلا لأني لم أستطع بعد إدراك كونكم تؤثرون بقاءكم حميراً ، بدلاً من أن تسعوا جاهدين للرقي بأنفسكم ، يمنعكم حب النفس و الهوى ، و يلجمكم الجبن و الذعر .

قال حماري :

نحن لا نؤثر التخلف و لا نرغبه ، و لكن ليس منا من هو مستعد للبلاء ، بل يرمون بالجهل و إتباع الفتنة ، و الخروج عن الجماعة كل من هو مستعد للبلاء و التضحية ، أو أنه يلقي بيده إلى التهلكة .

قلت لحماري :

و ماذا ترى أنت ؟

قال حماري :

لست في ذلك إلا كما قال الشاعر :

ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت و إن ترشد غزية أرشد

على أي حال إذا أراد الله أن يغير حالنا فسيغيره ، ألا تؤمن بالقدر يا سيدي ؟

قلت لحماري و قد علمت أن الحمير السمر يعانون من داء القدرية الغيبية فالإستسلام لشيء ينزل من السماء ، فيغير ما بحالهم بنفسه (جل و علا) :

يا حماري إن القدر هو ما ليس في حكم الخلق ، و لا يملكون في إدارته شيئاً ، أما تبني الإسلام و العمل على تعلمه و حمايته و نشره ، إن هذا كله ليس من القدر ، بل قدره الله أن يكون في أيدي مخلوقاته و بالتحديد بني الإنسان ، فيكون بإختيارهم أخذه أو تركه ، فإذا أخذوا به إهتدوا و نهضوا و رقوا ، و إذا لم يأخذوا به ضلوا و ذلوا و إستقروا في درك الحيوان ، و عاقبهم الله على ذلك .

قال حماري :

أعلم ، أعلم ، و لكن يوم القيامة قد إقترب ، و ظهرت علامات الساعة ، و الحياة على ذلك ستنتهي ، فلِمَ نجهد أنفسنا لأمرِ الله متوكله و منهيه ؟

- عجباً لهؤلاء الحمير ، إنهم بحق حمير ، لا أطرق جانباً من جوانب الفكر إلا و قد إتخذوا لأنفسهم فيه حججاً و سبلاً تهزمهم ، ينسلخون بها عن تأدية واجبهم نحو دينهم و عقيدتهم و مجتمعهم و أمتهم و أبنائهم و أزواجهم و أنفسهم ، و يبقون بها في درك التخلف و الإنحطاط .

قلت لحماري :

إن كون الساعة قادمة فهذا مما لا شك فيه ، و لكن هذا لا يغير و لا يبدل من وجوب تبني الإسلام و تعلمه ، و الحفاظ عليه و العمل على نشره ، و ليس لموعدها أو قيامها شأن في التخلي عن الدين و التخبط في إتباع الأهواء و العبودية لغير الله ، و ليس هناك أمر من الله يقول بأنه إن إقتربت الساعة فلا بأس من ترك الإسلام أو بعضٍ منه ، أو لا بأس من التخلي عن حمله و الدعوة إليه ، هذا فضلاً على أننا لا نعرف موعدها .

**

سكت حماري و كأنه لم يكترث لما قلته له ، و أنا كما قلت على علم أن القدرية الغيبية قد تأصلت هي و غيرها من الأفكار المخدرة عند الحمير السمر و غيرهم ، فوجود نوع من هذا الفكر "القدرية الغيبية" كان لا بدّ له للحمير السمر خاصة ، كونهم يصدقون بوجود الله من جانب ، و لا يقدرون على تطبيق ما يقتضيه هذا

التصديق من أنظمة و قوانين ، و بالتالي لا يستطيعون أن يجعلوا الإيمان بالله أو التصديق به مقياساً لأعمالهم .

فكان لا بد لهم من هذا الفكر التخديري عن المطالبة بالشريعة التي تتوافق مع ما يصدقون أو يؤمنون به ، و تتماشى بالتالي مع العقيدة المصلحية ، حتى لا تتعطل مصالخهم ، فلو طالبوا بها تعرضوا للمصادمة مع قوى داخلية و خارجية ، لا يعلمون عواقبها .

فالقدرية الغيبية (الإستسلام لكل الأفعال و الأحداث في الدنيا ، قدراً كانت أم لم تكن ، من منطلق الظن أن الإنسان مسيرٌ على الإطلاق) تتناسب تماماً مع التخلي عن مما يتطلبه التضحية و الإيثار و تقديم الأموال و الأنفس ، و بالتالي الشعور بالطمأنينة و عدم الذنب .

و كالقدرية الغيبية أفكار أخرى شبيهة ، كالإغراق في النوافل من تسبيح و قيام ليل و صدقات و غيرها ، و ترك الواجبات المكلفة كالدعوة و الجهاد ، على أساس أن هذه النوافل تقرب إلى الله ، لدرجة أن يصبح صاحبها من الأولياء الصالحين .

لا أقول إن النوافل لا ترفع الإنسان درجات عليا عند الله في الدنيا و الآخرة ، بل أقول إن النوافل ليست من الدين في شيء إن لم يؤد صاحبها الواجبات و الفروض التي على رأسها طلب العلم الشرعي و الدعوة ، و الفروض التي هي من مقتضى الشهادتين .

هذا الإغراق في النوافل يتناسب مجددا مع العقيدة المصلحية التي يصدق صاحبها بوجود الله تصديقاً مجرداً ، حيث لا يقتضي الإتجاه إليها تضحية بالنفس أو المال أو

ما شبههما ، فيكون صاحبها قد أدى شيئاً في سبيل راحة الضمير ، و لم يعرض نفسه و مصالحه للخطر كما يظن .

و لقد تعرضت الدعوة نفسها للتحريف ، تمشياً مع العقيدة المصلحية ، فمنهم من تبنى هذا الدين على أساس أنه دعوة أخلاقية ، تدعو إلى الأخلاق الحسنة و الفاضلة و التسامح و التذلل ، تركاً للدعوة إلى كامل الدين الذي يتطلب التضحية بالمال و الأنفس ، و قد وقع بعض العقلاء في هذا الفخ " فخ الجهل " بواقع الدعوة إلى هذا الدين ، و قد يكون للعقيدة المصلحية بعض التأثير ، فمنهم من تنازل عن جانب من الجوانب الأساسية في الدعوة إلى الإسلام ، و يرتضي حلولاً وسطاً تجنبهم بطش الباطشين ، و غير هؤلاء كثير ، إلى أن ظهرت أشكال عديدة للدعوة التي ليست من الإسلام في شيء .

و عند كثير من العقلاء إختلطت مفاهيم كثيرة ، قد يكون للواقع فيها أحكام عليهم ، فإتخذوا من العنف سبيلاً لدعوتهم ، و سبلاً أخرى مستمدة كثيراً من الواقع .

****

الفصل الخامس عشر

النهاية السعيدة

على أي حال أرجو أن يكون ذلك خيراً ، و لست بحديثي هنا عن العقلاء في شيء ، فقد جهدت كثيراً ، يشغلني و يؤرق نومي و مقامي حال الحمير السمر ، فلو عقلوا لسادوا الأرض ، بما عندهم من طاقة و قوة ، و لسجدَت لهم الشعوب ، فقيرها و غنيها ، شكراً لهم و إعترافاً لهم بالجميل ، و آخرون خضوعاً و ذلاً .

و لتبدل حال الأرض هذه إلى جنة تذكّر بجنة السماء التي ليس فيها ظلماً و لا هضماً ، و لا لغواً و لا تأثيماً ، و لكن من أين لي بجموع الحمير تلك التي تأبى إبتداءً أي تغيير لحالها ، و قد آثروا البقاء حميراً ، و سجوا على أن يأكل بعضهم بعضاً ، و ينهش بعضهم أجساد بعض ، و آثروا أن يحاربوا أنفسهم لقاء مال قليل و ظلم عظيم .

أين لي بهم ؟ و هم إذا ما دُعوا رأوا في ذلك سفاهة و فلسفة و خروجاً عن الإستقامة ، و أين لي بهم و لم يعد لي بهم أي نقطة إلتقاء ، بل نقاط إفتراق ، و قد أهلكهم السعي إلى لقمة العيش كما يقال ، و كأن لقمة العيش لا تأتي إلا بسلوك سبيل الظلم و الأذى ، و الكذب و الغش و البخس .

و ياليت قد جمعتهم تلك السبل ليكونوا كتلة واحدة ، و ياليتها قد صنعت لهم تلك السبل مجداً ، أو جسداً و فكراً واحداً . بل لا يمكن للباطل أن يُجمّع ، بل إن الباطل يفرق و يمزق ، و يلبس الناس شيعاً ، و يصبغهم النفاق والضلال .

و ياليت الحمير تجهل حالها حتى يُلتمس لها الأعذار ، بل إنها تعلم جيداً الإنحراف الذي أصابهم و التخلف و الإنحطاط الذي أحاط بهم ، بل و هم يعلمون أكثر مما أعلم عن أنفسهم ، و إذا ما أتاهم أحد مثلي نظروا إليه متعجبين من حديثه ، و من دعوته مستنكرين ، و بالجنون و الوهم و الخيالات له واصفين .

أخذت أحادث نفسي كثيراً ، و قد بدأت أفهم نفسيات الأنبياء و العقلاء و هم يدعون أقوامهم ، و ذهب منهم كثير ضحية القتل و الإهانة و الإذلال و المحاربة ، فقابلوا إخلاصهم و تضحيتهم و دعوتهم الصادقة بالسخرية و الإستهزاء و الإتهام بالجنون ، أو إتهامهم بحب المال و الجاه و السلطان .

و تأخذ السخرية و الإزدراء عادة قمته كون أن هذه الدعوات أكثر من يستجيب لها الفقراء و الضعفاء أو كما يقولون بادي الرأي ، و قد تفتقد الإستجابة لهذه الدعوات أصحاب الجاه و السلطان و الأغنياء .

و لم تفتقر الدعوة عند الأنبياء أو الصالحين لشيء من البيان ، بل كانت الدعوة واضحة جلية ، و لكن الرفض كان مصدره الكبر و الإستعلاء ، و الترفع عن النزول لرأي الغير ، أو لعادات و تقاليد جديدة يفرضها الرأي الجيد .

و يتعدد الرافضون للتغيير أو حتى للإصلاح بين منافق و إنتهازي و مرتزق و مجرم صريح ، تحت مظلة الأنظمة القائمة ، التي ما إن تبدلت قلبت عليهم ظهر المجن و على مصالحهم ، فيقفون موقفاً تجاه أي أمر من شأنه التبديل عليهم ، حتى و لو ذهب ضحية مصالحهم مئات الألوف من الناس .

أما اليوم فقد أصبح هؤلاء أكثر سوءاً و نفاقاً و إجراماً و مكراً ممن كان قبلهم ، أنهم قاموا يستخدمون الحق لمحاربة الحق ، بإلباس الباطل ثوب الحق ، و إلباس الحق ثوب الباطل ، حتى أفقدت الناظر التمييز بينهما ، فكانوا خير سند للسلطان القائم ، و خير معين ضد أي دعوة من شأنها التغيير أو الإصلاح .

فكان من جراء ذلك أن إنحرفت أهم قواعد التفكير السليم ، كمقاييس الأعمال و طرائق التفكير ، و أمطر سماء الإعلام المنظم الشرس الأرض بمعلومات خاطئة ، و أفكار أعمت الأبصار ، فأشغلت العقول بما لا ينفع ، و أفقدتها ربط الأفكار ربطاً صحيحاً ، حتى تكبلت بقيود أفقدتها حتى التبصر بالبديهة .

و ها أنا ذا مع حماري و أنا أعلمه أشهراً و سنيناً ، و أفقهه بكل شيء أعلمه و أتعلمه ، ساعياً تغيير فكره لأحرره من عبوديته ، و أرقى به إلى مصاف العقلاء ، و لكن هيهات .

لا أقول أني لم أنجح في شيء ، و لكن التيار الفكري الذي يقاوم و يناهض ما أحمله إليه ، تيار عظيم لا يقومه إلا تيار مثله ، فلا أترك حماري أياماً حتى ينسى كل ما تعلم ، و يعود فيهيم في الأرض يأكل ما خبث فيها ، كأن شيئاً لم يكن ، و يعود الحال كما كان .

ثم أجده يعود فيما بعد ، فيجادلني فيما قد تبين له من الحق ، ثم يعود فينصحني أن أترك الدعوة التي أدعوه إليها ، و كأنه قد أخذ هو على نفسه عهداً أن يحط بي من مصاف العقلاء إلى مصاف الحمير ، كنفس العهد الذي أخذته على نفسي أن أرقى به و غيره من الحمير إلى مصاف العقلاء ، فواأسفي عليه .

كثيرون هم الذين يحاولون إقناعي بعدم جدوى ما أفعل ، و حجتهم أن لو أراد الحمير أن لا يكونوا حميراً لفعلوا ، أوهل أُكرههم على ما لا يحبون ؟! ثم يقولون لي أن الحمير لا ينفع معهم الجدال بالحكمة أي بالبرهان العقلي فهذا فيه إحترام لهم ، و هم يتمردون على من يحترمهم ، ظناً في جهله أو ضعفه ، لذلك يجب قسرهم على الحق قسراً بالقوة و الضرب ، فهم المطايا و قد سَجُوا على العبودية و العصا .

و لكني أقول إن القسر و القوة هي مرحلة من المراحل التي قد يستخدمها السلطان يوماً لإجبار من لم يرض بالحق و لم يذعن له ، حين يكون الحق قد ظهر فوق كل أمر ، و إرتضاه الناس ، و أصبح و اقعاً في باطنه الرحمة و في ظاهره من قبله الرحمة كذلك .

أما الآن فقد يكون أكثرهم مطايا تُستخدم لإظهار الحق ، و لن يتذللوا لإظهار حق أو إبطال باطل دون أن يكونوا هم راضين عنه ، فيطالبون به و يجندون أنفسهم من أجله حتى يظهر ، و حتى يصلون إلى مرحلة المطالبة هذه ، فهذا قد تحدثنا عنه كثيراً ، بل و له شجون كثيرة .

و ليست المطالبة المجردة هي التي نبتغيها ، و إنما الذي نبتغيه نوعية هذه المطالبة ، و دأبنا أن يكون هذا الدين هو المطلب الرئيسي و الحقيقي للجميع ، و ليست المصالح كيفما كانت مُلبسة ثوب الإسلام و تتحدث بلغته تحت شعارات براقة كشعار الإصلاح ، الذي يُبقي الحمير كما هم حميراً يلبسون العمائم و يطلقون اللحى .

و في الحقيقة لن يتم ذلك إلا بالدأب الشديد في الدعوة ، و الصبر على أذى الفئات المنتفعة التي ذكرنا و جنودهم .

و قد يصاب العقلاء بالإحباط الشديد و هم يرون الحمير يقبلون بالعبودية و بكل أنواع الذل أو الفقر أو الجهل ، أو بهم كلهم مجتمعين .

و لكن الدعوة لها خيوط آمالٍ كثيرة ، فهناك أرحام تلد أحراراً ، و هناك أصلاب تنجب رجالاً ، و قد يكون من بين الحمير من يريد أن يصبح من العقلاء و لكن لا

يعرف كيف ، و بالتأكيد هناك عقلاء لا تراهم الأعين إلا وقت الشدائد ، فلا يمكن للناظر أن يبصر كل شيء ، أو أن يحيط علمه بكل شيء .

فقد تقول كلمة حق لضال لا يهتدي هو بها ، و لكن ينقلها دون أن يعلم ، فيهتدي بها أناس كثيرون . و قد تقول كلمة حق لضال يضر بك ، أو يشتمك بسببها ، ثم تجده نفسه يوماً يحملها و يتحدث بها بين الناس . و قد يهتدي إلى المبدأ حمير كثير لمجرد سلوكك المبدئي و طريقة حياتك و حملك لهذه الدعوة .

و هنا أقف عند ما آلى إليه حواري الطويل مع حماري ، حيث أنا الآن قعيد الفراش إثر هجوم جمعٍ من الحمير قادهم إليه حماري ، بعد أن إنهالوا علي ضرباً و رفساً و عضاً ، فأصابوني إصابات كان على إثرها ما كان من حالي الذي وصفت الآن .

لا عجب من هذه النهاية ، فهناك نهايات أكثر ألماً و أوقع أثراً و أشد نكالاً

و الآن و قد مكثت شهوراً متعجباً من صنيع حماري هذا مع من كان معه ، حيث لا أذكر إلا أني قد أحسنت إليه و أهله و عشيرته و أخلصت لهم ، و أظن أني قد تعلمت الآن شيئاً لم أكن أعلمه من قبل عن عقول الحمير و نفسياتهم ، و أظن أنه .....

،،،،،،،،،،،، **إنتهى** ،،،،،،،،،،،،

****

قلت لحماري